مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك

(في الفترة 684 ـ 923هـ/ 1250 – 1517م)

د/ صرفت عثمان حسن

مدرس بكلية التربية – جامعة عين شمس

obeikan.com

obeikan.com

مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك

(في الفترة 684 ـ 923هـ/ 1250 – 1517م)

توطئة :

يعد عصر سلاطين المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومي، وما زالت آثاره المادية – إن لم تكن الروحية – شاخصة بين أعيننا إلى اليوم ؛ فالدولة المملوكية التي عاشت قرابة قرنين من الزمان (648–923هـ/ 1250–1517م) تعد من أغنى الدول بسلاطينها وحكّامها الأقوياء أمثال بيبرس والمنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم، فقد لعبت تلك الدولة دورًا مهمًّا في التاريخ بوجه عام وفي التاريخ الإسلامي بوجه خاص ؛ وذلك لأعمالهم الجليلة الرائعة التي تشهد مكانتهم الخالدة إلى الآن.

ومع كل هذا نجد أن المكتبة العربية ما زالت تخلو من المؤلفات الحديثة التي تبحث عن كيفية موت هؤلاء السلاطين ومراسم دفنهم وعزائهم، وذلك على الرغم مما امتاز به هذا العصر من كثرة المصادر والمراجع التي تبحث في كل شيء.

وعلى الرغم من تلك المكانة الرائعة لسلاطين دولة المماليك إلا أننا نجد على الجانب الآخر أن هناك من مات بعد أن قتل بوحشية، ومن مات بعد أن مرض مرضًا شديدًا ، ومما هو جدير بالملاحظة أن عادات ومراسم الدفن اختلفت من سلطان لآخر على حسب الموقف الذي يعيش فيه السلطان والوقت الذي يقضيه في الحكم ثم يقتل أو يموت بعد أن يصاب بمرض قوى، ونظرًا لظروف دولة المماليك التي كان المبدأ السائد

بها أن الحكم للأقوى ولمن غلب، فنجد الكثير ممن قُتِلَ من هؤلاء السلاطين، ولم يكن لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وسوف نجد العديد من الأمثلة على ذلك في الصفحات القادمة.

فقد يأتي الموت الذي قدره الله - تعالى - على العباد[1] فجأة دون أن تكون له أي مقدمات ، وقد تكون له مقدمات منها المرض العضال الذي يُتَأَلَّمُ منه تألمًا شديدًا، وكان هناك من يموت دون أن يصاب بالمرض فالقتل هو المصير المحتوم بالنسبة إلى السلاطين.

هذا وسوف يقسم هذا البحث إلى قسمين ؛ قسم يتضمن سلاطين المماليك الذين قُتلوا ولم يُقَمْ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وقسم يتضمن سلاطين المماليك الذين مرضوا وماتوا وأقيمت مراسم لدفنهم وعزائهم.

أولاً : سلاطين المماليك الذين قُتِلُوا :

إذا تتبعنا من قُتل من عصر دولة المماليك من السلاطين ولم تُقَمْ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء فسوف نجدهم الكثير والكثير وذلك في العصرين المملوكي البحري والجركسي ، ففي عهد دولة المماليك البحرية والجركسية نجد أنه قتل عدد كبير من سلاطين المماليك ومعظمهم - إن لم يكن جميعهم - عومل معاملة قاسية عند القتل فكان السلطان يترك بدون تغسيل أو تكفين بعد مرور أكثر من ثلاثة أيام مثلما حدث مع السلطان قطز الذي اغتيل في بداية عهد دولة المماليك البحرية وهو صاحب العزيمة الفاضلة والصادقة والذي له الفضل الأول في تدعيم الدولة المملوكية، وإرساء قواعدها سواء في النواحي الداخلية أو الخارجية[2] وقد قتل السلطان المملوكي

---

(1) سعيد سيد أحمد أبو زيد، عادات المسلمين الأندلسيين، حولية التاريخ الإسلامي الوسيط، المجلد الرابع ، القاهرة سنة 2004-2005م، مصر ، ص51.

(2) د. أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، القاهرة 1988م الجامعة سنة 1988م، ص172.

المظفر قطز[3] حين رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أزهق روحه[4] وعندما قتل السلطان ظل مُلْقًى في الخلاء بالقرب من القصير[5] وهو المنزلة التي بالقرب من

(3) السيوطي: الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي ت97هـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، مج2، منشورات: محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص60، عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ط3، الرياض ، سنة 1410هـ/ سنة 1989م ، ص37، نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول (المماليك المفترى عليهم)، ص156، نور الدين خليل، الظاهر بيبرس رعب الصليبيين (المماليك المفترى عليهم)، ص60، محمد أحمد موسي هياجنه، محاضرات في تاريخ المغول، المماليك، مكتبة الحرمين، بدون تاريخ، إربد، ص78، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي، الاجتماعي، ط1، القاهرة ، سنة1998م، ص78، قاسم عبد قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك، ط2 القاهرة ، سنة 1996م، ص148، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص39، السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر والشام ، ط1، دار العربية ، القاهرة سنة 1965م ، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، ط1سنة 1995م، ص45 ط1.

M.M ziada, The Mameluk sultans to 1293, pp746:747 Dr: Syeda satima sadeque M. A, phD., Baybars I of Egypt, oxford university press, Pakistan, first Edition 1956, p16. William Muir, the Mamluk or slave Dynasty of Egypt, Amsterdam, oriental press, 1968, p11.

(4) قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ، 2003م ، ص208.

(5) القلقشندي: أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي طويل، جـ3، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق سنة 1987م، ص498، القصير: هو بلد بمصر بطريق الرمل، بينه وبين الصالحية مرحلة، راجع: المقريزي: تقي الدين أحمد بن المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، جـ1، ق2، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة 1914م، ص371، أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط1 بالمطبعة الحسينية المصرية سنة 1325م، ص144، اليونيني: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مج2، ط1، مطبعة مجلس دائرة العارف العثمانية – بحيدر أباد الدكن ، الهند سنة 1375هـ/ 1955م، ص1، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، سنة 1967، ص45.

الصالحية[6] وعندما عثر عليه بعض خدامه مُلْقًى في العراء أخذه ودفنه في المكان الذي قُتل فيه «القصير»[7].

هذا وتتوالى الأحداث لنجد أن السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ظل مُلْقًى بالعراء هو الآخر دون أن يدفن لمدة يومين أو ثلاثة أيام وتفاصيل ذلك[8] أنه قد قُتل عام 693هـ/ 1293م، بالبلد المعروف

---

(6) ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة 1355هـ/ 1936م، جـ7، ص86، المقريزي تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ3، ص387، مكتبة الآداب، الصفدى: الحسن بن أبي محمد، عبد الله الهاشمي العباسي، نزهة المالك والمملوك في مختصر من ولي مصر من الملوك، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 23662، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط1 سنة 1434هـ/ سنة 2003م، ص150، العسقلاني المصري، كتاب الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص80.

(7) ذكر ابن إياس أن السلطان قطز قتل عام ثمانٍ وخمسين وستمائة ودفن بالقرب من القرين، راجع: ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى، جـ1، ق1، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1 ببولاق سنة1311هـ ص308، هذا وقد ذكر ابن تغري بردي في مقتل قطز : "بقي بالعراء، فدفنه بعض من كان في خدمته بالقصير وكان قبره يقصد للزيارة دائمًا... راجع: ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ7، ص86، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، مكتبة النهضة المصرية، ص45، هذا وقد قيل إن قطز حُمل بعد ذلك إلى القاهرة فدُفن بالقرب من زاوية الشيخ التقي قبل أن تعمر، نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة، ودفن قريبًا من زاوية ابن عبود، راجع: النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص 85-86.

(8) العماد الحنبلي: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ3، عنيت بنشره مكتبة القدس سنة 1350م، ص422، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، تقديم د.محمد مصطفى زيادة، الدار القومية للطباعة والنشر سنة 1966م، ص14، بدر الدين العيني، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: إيمان عمر شكري، ط1 ، القاهرة سنة 2002م، ص29. www.coptichistory.org .

بتروجه[9] من جهة البحيرة من الديار المصرية، وقيل إنه قُتل غدرًا وهو يصطاد[10] قتله أمراء المماليك[11] بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بمصر[12] ولاجين نائب دمشق، وقراسنقر نائب حلب[13] وتركوه على الأرض[14] وبقي الأشرف ملقًى في المكان الذي قتل به يومين في الفضاء على ظهره[15] وحيدًا ثم ذهبوا وتركوه، وللمصادفة رآه الأمير عز

(9) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص375، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ8، ص21، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص77، www.coptichistory.org ، تروجه من البلاد المصرية القديمة المندثرة، ومكانها اليوم كوم تروجه بأراضٍ ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة، راجع: محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، القسم الأول ، ص190، ابن الجيعان : يحيى ابن شاكر بن الجيعان، كتابه التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق: برنهارد مورتيس، القاهرة سنة 1898م، الطبعة الأهلية سنة 1992م، ص124، أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ4، ص29.

(10) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص273، الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ص169.

(11) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ص ص43-44، المقريزي، الخطط، جـ3، ص388، مكتبة الآداب، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص127.

(12) اليافعي: الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي اليمني المكي سنة 768هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، دون تاريخ، جـ4، ص166.

(13) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، جـ3 (547 إلى 700هـ) جـ5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص378، ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي سنة 774هـ البداية والنهاية في التاريخ، جـ13، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة 1358هـ، ص140.

(14) ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ1، مطبعة دار الكتب سنة 1976، ص167، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص374، ابن أبي الفضائل (مفضل): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص568.

Text Arabe Publiee et traduit en francais par E. blochet. Patrologia Orientalis t.xiv. fasc, 3paris, 1911,1930.

(15) أبو الفدا، المختصر، جـ4، ص30، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص374، سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص106.

William Muir, the Mameluke or slave Dynasty, p46.

الدين أيدمر الفخري والي تروجه، عريانًا بادي العورة[16] فأخذه وحمله على جمل إلى دار الولاية بالقاهرة، وغسله في الحمام وكفنه[17] ثم صلوا عليه بعد ذلك[18] وجعله في بيت المال بدار الولاية ، إلى أن حضر الأمير سعد الدين كوجيا الناصري فأخذه وحمله في تابوته الذي كان فيه ، ودفنه في تربته

(16) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، جـ2، القاهرة، سنة 1966م، ص182.

(17) تكفين الميت فرض كفاية على من حضره من المسلمين وفرضيته ثابتة بالسنة وإجماع الأمة، فقد أمر النبي (ﷺ) به وفعله الصحابة والتابعون من بعدهم ويكون التكفين بعد الغسل مباشرة ويُكفنه أقرب الناس إليه وأحفظهم لسره، والحكمة في تكفين الميت ستره عن الأعين وتكريمه ميتًا مثلما يكون ستره وتكريمه حيًّا ، لمزيد من التفاصيل عن تكفين الميت: راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، جـ3، ص241، ص246، محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، جـ1، ص386.

www. imadislam.com & www.saaid.net, www.janazh.com & www.ibntaimiah.alislam.com.

(18) الصلاة على الجنازة وأركانها وسننها : فشروطها سبعة وهي طهارة الحدث وطهارة الخبث وستر العورة واستقبال القبلة وترك الكلام وترك الأفعال الكثيرة والنية ، وأركانها أربعة تكبيرات والدعاء والتسليم والقيام والقدرة، وسننها ستة ، الأولى رفع اليدين في التكبيرة الأولى ، والثانية الحمد والثناء على الله تعالى والصلاة على النبي (ﷺ) والثالثة الدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والرابعة التيامن بالسلام وإخفاؤه، الخامسة أن تكون في جماعة، السادسة أن يوضع الميت بين يدي المصلي ورأسه إلى جهة المغرب وموضع قيام المصلي وسط الرجل والمرأة عند منكبيها على مذهب مالك رحمه الله تعالى، راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، جـ3 ص252، وقد كانت صلاة الجنازة على السلاطين تتم في القلعة أو عند باب القلة بها ثم ينزلون من سلم باب المدرج وتتوجه الجنازة بعد ذلك إلى التربة المعدة لدفن كل سلطان سواءً بالقرافة أم بالقاهرة نفسها. راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105، جـ15، ص453، جـ16، ص157 ، ص222 ، ص306، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص175- ص176، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص ص188-192- 300-303-367، 455، جـ3، ص334.

بالقرافة[19] بالقرب من المشهد النفيسي بمصر[20]، هذا والشيء الذي يجب الانتباه إليه هنا هو أن الأشرف خليل بن قلاوون من السلاطين الذين لم تُقَمْ لهم مراسم لا للدفن ولا للعزاء[21].

ومن مظاهر الحزن على قتل السلطان الأشرف خليل أن جواري الملك الأشرف وأولاده وحواشيه كانوا قد لبسوا ملابس الحداد السوداء، هذا إلى جانب ما ذكره المقريزي عنهن قائلاً : "وتذرعن السخام[22] وطفن في الشوارع يبكين ومعهن النواحات[23] يقمن المآتم ، فلم يُرَ بمصر أشنع من تلك

---

(19) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص790، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص ص24-25، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط1، دار النهضة العربية القاهرة سنة 1965م، ص103 هذا ونوضح أن لفظ التربة إنما يقصد به المقبرة أو المدفن ذو القبة وذلك خلال العصر الأيوبي وبداية عصر المماليك، ولم يكن هذا المعنى قاصرًا على مصر وحدودها في تلك الفترة وإنما عرف أيضًا في العمارة الأيوبية في سوريا، راجع: عادل نجم عبود، التربي في العمارة الأيوبية في سوريا، مجلة سومر، جـ1، جـ2، مج30 سنة 1973، ص ص273-280.

(20) في بدائع الزهور وخطط المقريزي، الانتصار أن دفنه كان بمدرسته (المدرسة الأشرفية) بالقاهرة بالقرب من مزار السيدة نفيسة، وقبره لا يزال موجودًا تحت قبة المدرسة المذكورة والمعروفة إلى اليوم. راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزهرة، جـ8، ص21، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص375.

(21) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص103، هذا يتنافي مع ما ذكره صاحب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، جـ1، ط2، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد - الهند، سنة 1972م، ص412.

(22) السخام هو الفحم الأسود، فيكون المعنى أن الجواري قد أكثرن من تلطيخ أذرعهن بتلك المادة السوداء، وفي لسان العرب تزرع الشخص الكلام أو السخام أكثر منه وأفرط فيه والأسد المذرع على ذراعيه دم فريسته، راجع: المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص796.

(23) الميت يتأذى بنوح أهله عليه مطلقًا قال ذلك طائفة من العلماء وما يهيج المصيبة من إنشاء الشعر والوعظ فمن النائحة، راجع ابن تيمية، مجموع من الفتاوى الكبرى للإمام ابن تيمية مرتبًا على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، جـ1، دار الفكر للطباعة والنشر سنة 1993م، ص84 وقال - ﷺ - النائحة ومن حولها في النار، راجع: ابن الأخوة، كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1976، ص106.

الأيام"[24]، ويتضح لنا من كلام المقريزي أن ملابس الحداد كان لونها أسودَ إلى جانب البكاء والنواح، بالإضافة إلى دهان أجسامهم بل تلطيخها بالسخام، ويبدو أن هذا هو الشائع عند كل مأتم.

يا لها من فترة تاريخية حرجة توحي بضرورة التوقف للتبصر وإمعان النظر فيما يحدث فيها من كثرة القتل والموت الذي كان يحدث، فعندما تَتَتَابع الأحداث وتتوالى نجد العديد ممن قُتل من السلاطين الذين تركوا في العراء دون غُسل أو دفن لمدة ثلاثة أيام أو أكثر فقد قُتِلَ السلطان الناصر أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي وجد مقتولاً بالكرك[25] وقيل إن الذي قتله هم المماليك الأشرفية ، قتلوه وتركوه ميتًا وغلَّقوا الأبواب عليه وتركوه ومضوا[26] وعندما انتشر خبر وفاة السلطان الناصر أحمد بدأوا في تجهيزه وفي عمل مراسم الدفن[27] من تغسيل وتكفين ، وبالفعل جُهز السلطان فغُسل وكُفن وصلوا عليه صلاة الجنازة ونزلوا به من باب الدرفيل ودفن بالقرافة

---

(24) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص796.

(25) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص ص398-399، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص ص71-93، أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، تحقيق: حسام الدين القدسي ، جـ1 دار الكتب العلمية، بيروت ، ص290، إن فكرة ذبح المغول لسكان المدن التي تقاومهم وسلب جميع أموالهم هذه تقاليد القبائل البربرية الرحل التي لا مقر لها ولا مسكن يؤويها.

-Blochet: Introduction a l'histoire des Mongols de fadlallah Rashid Ed- Din, pp216-217.

حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي آثاره السياسية والدينية، والاقتصادية) ، دار الفكر العربي القاهرة سنة 1949م، ص220.

(26) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص ص 398-399.

(27) الدفن هو الستر والمواراة ، دفنه دفنًا وأدفنه فاندفن وتدفن فهو مدفون ودفين ، والدفن والدفين: المدفون والجمع أدفان ودفناء، والدفن جمع دفين وهو الشيء المدفون وأرض دفن مدفونة، والجمع أيضًا دفن. راجع: ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، جـ13، دار صادر، بيروت سنة 1985م، ص155.

الصغرى[28] والواقع أنه لم يُقَمْ له عزاء[29]، وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من قُتل من السلاطين ورمي على المزبلة مثلما حدث مع كلٍّ من السلطان المنصور حسام الدين لاجين المنصوري والسلطان الناصر فرج بن برقوق، فتتوالى أحداث العنف والقتل في العصر المملوكي لنجد ما حدث في عام (698هـ/ 1298) عندما قُتل السلطان الملك

---

(28) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص ص398-399.

(29) شمس الدين الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، جـ2، ق1، النص العربي يُطلب من دار النشر فراتر شتانير- فيسبادن سنة 1978م، ص274، العزاء في اللغة الصبر، والتعزية: التصبير والتسلية والمواساة بالكلام الحكيم والمواعظ البليغة وهي مستحبة لما فيها من التعاون والتراحم والثواب العظيم والتعزية تكون لجميع أهل الميت صغارًا وكبارًا ذكورًا وإناثًا ولو كانوا من أهل الذمة (اليهود والنصارى)، وتؤدى بأي لفظ مناسب للمقام فالحكيم من عرف مواطن الكلام، والبليغ من يراعي مقتضى الأحوال والطبيب الماهر هو الذي يشخص الداء ويعرف الدواء، فالكلام الذي يقال للكبير ربما لا يصح أن يقال للصغير، والمهم في التعزية أن تخفف هول المصاب وتجعله يرجع إلى الله ويسلم أمره إليه، ويحتسب أجره عليه: راجع: محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح جـ1، ص435، ومن أمثلة ما يقال في التعزية أيضًا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ وإن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفًا من كل هالك ودركًا من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجو فإن المصاب من حرم الثواب. راجع: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، جـ2، ط1، دار الجيل، بيروت سنة 1992م، ص ص313-314-316، الزهري: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الذهبي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، جـ1، ص363، جـ2، ص ص259-275-289، ط1، دار صادر، بيروت، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، جـ4، دار الكتب العلمية، بيروت سنة 1992م، ص38، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، جـ7، ط1، سنة 1988، ص3285.

المنصور حسام الدين لاجين المنصوري[30] قتله كرجي[31] بالاتفاق مع طغجي[32] وقيل إنه عندما قتل رموه على مزبلة[33] ولم تذكر المصادر والمراجع شيئًا عن تجهيزه من غسل

---

(30) بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، ط1، القاهرة سنة 1987، الدار المصرية اللبنانية، ص154، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص53، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289، العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص34، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص115.
William Muir, the Mameluk or Slave Dynasty, pp51-52.

(31) كرجي: عبد الله الأمير سيف الدين مقدم المماليك البرجية، وهو الذي قتل حسام الدين لاجين فقتله أعوان المنصور لاجين، راجع: ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1956، وهناك محقق آخر وهو د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب سنة 1993م، العيني: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه: د.محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة 1990م، حوادث سنة 698هـ ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة 1976م، ص212، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص3، ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص612، أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ4، ص39، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص19.

(32) طقجي أو طغجي: عبد الله الأشرفي الأمير سيف الدين، كان أميرًا في دولة العادل كتبغا، ووافق على قتل السلطان حسام الدين لاجين ثم تولى نيابة السلطنة أربعة أيام ثم قتله أعوان المنصور لاجين. راجع: ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص212، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص3، بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص154.

(33) المقريزي، السلوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات بيضون، ص306، حوادث سنة 698هـ وقتل لاجين بينما كان يتأهب لصلاة العشاء، وقد أسهب مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص612، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص ص101-102، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ص ص137-138 في وصف مقتل السلطان لاجين ومنه يتضح أنه قتل بواسطة النمجاة وهي عبارة عن خنجر قوس يشبه السيف الصغير، المقريزي السلوك، جـ1، ص857، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص78.

وتكفين، فدفن بتربته بالقرافة بجانب تربة العادل كتبغا، ومن الطريف ما ذكر عن أولاد كتبغا عندما كانوا يأتون إلى قبره ويضربونه بالنعال ويسبونه، وظلوا على ذلك مدة حتى ينتقموا لأنفسهم بذلك[34] .

والشيء الواضح والمفهوم مما سبق أنه من المحتمل أن السلطان المنصور لاجين لم يُقَمْ له عزاء لأنه كان مكروهًا ولا أحد يحبه بدليل ما فعله أولاد كتبغا كما سبق أن ذكرنا، هذا وقد ذهب لقتال الناصر فرج رجلان من المشاعلية فعندما رآهم الناصر فرج قام إليهم فزعًا وعرف فيم جاءوا ودافع عن نفسه وضرب أحد الرجلين بالمدورة بسرعة ثم قام الرجل هو ورفيقه ومشيا إليه وبأيديهم السكاكين وما زالا يضربانه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهما وليس عنده ما يدفع عن نفسه به حتى صرعاه بعدما أثخنا جراحه في خمس مواضع من بدنه وتقدم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه وقام عليه فتحرك الملك الناصر فعاد إليه وخنقه ثانيًا حتى قوي عنده أنه مات فتحرك فعاد إليه ثالثًا وخنقه وسلب ما عليه من ثياب ثم سحب برجليه حتى ألقي على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السماء وهو عاري البدن تستر سراويله عورته وبعض فخذيه وعيناه مفتوحتان والناس تمر به ما بين أمير وفقير ومملوك وحر وقد صرف الله قلوبهم عن دفنه ومواراته وبقيت العامة والعبيد والأوباش تعبث بلحيته وبدنه واستمر على المزبلة المذكورة طَوال نهار السبت المذكور ، فلما كان الليل من ليلة الأحد حمله بعض أهل دمشق وغسله وكفنه ودفنه بمقبرة باب الفراديس احتسابا لله تعالى بموضع يعرف بمرج الدحداح ولم تكن جنازته مشهودة ولا عرف من تولى غسله وقد كانت وفاة الناصر فرج بن برقوق[35] (815هـ/ 1412م) بشعة بل شنيعة[36] وذكر في موضع آخر عن قتله أيضًا أنه عندما سجن بالبرج بقلعة

(34) المقريزي ، السلوك، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، منشورات بيضون ، ص306 ، مفضل ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ، ص612 ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج1 ، ص ص101-102، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج1 ، ص ص137-138.

(35) ابن تغري بردي ، مورد الطاقة ، جـ2 ، ص131.

(36) إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1960م ، ص30، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص162.

دمشق، أخذ الناس يتحدثون في ذلك، وخشي (خاف) جماعة كبيرة من (حاشية) أخصاء الملك الناصر منه، ومن هؤلاء الذين خشوا منه بكتمر جلق، ومنهم فتح الله كاتب السر وقاضي قضاة الحنفية ابن العديم، فتآمروا وسعوا في قتله بسرعة، فأرسلوا له أربعة من الفداوية[37] فقتلوه بالخناجر وهو في البرج بقلعة دمشق فأصبح الناس يتحدثون بذلك، ولكن هناك جماعة من الناس كانت تشك في قتله، والذي حدث أن الناس أخرجوه من البرج، ورموه على مزبلة خارج المدينة وهو عريان مكشوف[38] الرأس وليس عليه غير اللباس في وسطه، وعندما وجده الناس كذلك صاروا يأتون إليه أفواجًا ينظرون إليه ويعبثون بلحيته[39] فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن، ولو أتيحت الفرصة لمماليك أبيه أن يحرقوه بالنار لفعلوا ذلك مما قاسوا وعانوا منه... وظل الناصر فرج بن برقوق ملقًى فوق المزبلة[40] ثلاثة أيام لم يدفن، ولكن نجد أن بعض الناس (الصالحين) أتوا إليه في الليل وحملوه إلى مكان حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه بمقبرة مرج الدحداح بباب الفراديس[41].

وسبب ما حدث للناصر فرج بن برقوق أنه كان سلطانًا مكروهًا وغير محبوب فلم نر أو نسمع أو نشهد له مراسم للعزاء أو للدفن[42] أي أن جنازته - كما ذكر صاحب النجوم الزاهرة - لم تكن مشهودة ولا عرف من تولى غسله ومواراته[43] وأيا كانت الروايات

---

(37) وقيل إنه قتل على يد جماعة من المشاعلية وهم الذين يحملون مشعلاً يقاد بالنار بين يدي الأمراء ليلاً. راجع: ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، هامش 12، ص131، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148.

(38) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148.

(39) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148.

(40) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148، إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص30، راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص61.

(41) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148، إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص30.

(42) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص819.

(43) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص148.

فيمكن التعليق على ما حدث للناصر فرج بن برقوق من طريقة قتله وإلقائه فوق المزبلة أنه يدل على عدم مراعاة حرمة السلطان (الملك) حتى إنهم لم يراعوا حقوق تولية الملك الظاهر برقوق عليهم حتى لو أن الناصر فرج قد أساء التصرف مع المماليك، ونحن نعلم أن إكرام الميت دفنه وكان من الأفضل بعد قتل الناصر فرج ستر جسده وموراته وما يتطلب من تجهيز الميت من تغسيل وتكفين كما تم مع من سبقه من الملوك والسلاطين، ولم تراعَ له حرمة أو أنه كان في يوم ما من السلاطين والملوك وأنه ابن سلطان أحسن إلى رعيته، هذا وكان يجب مراعاة السلطنة وناموس الملك مطلوب من كل واحد والملوك لهم غيرة على الملوك ولو كان بينهم العداوة والخصومة، هكذا كانت تنتهي حياة الملوك بكل سهولة ولم تراعَ لها حرمة ، ومن المثير للدهشة أن الأخ يأمر بقتل أخيه وهذا حدث عندما قبض على الملك الكامل زين الدين شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون (747هـ/ 1346-1347م) وحُبس في الدهيشة ثلاثة أيام، وعندما تسلطن المظفر حاجي أمر بخنق أخيه الملك شعبان فَخُنِقَ بالليل ، وعندما مات لم تذكر المصادر والمراجع شيئًا عن غسله وتكفينه ولا عزائه، وإنما ذكرت فقط أنه لما مات دُفن على والده أي بتربة والده الناصر محمد بن قلاوون داخل القبة التي بين القصرين[44]، ومن العجيب أنه في عام (748هـ/ 1348م)، قبض الأمير بيبغاوروس على السلطان المظفر حاجي وتوجه به وهو سائر إلى تربة عند الباب المحروق فخنقه[45] في تلك التربة ودفنه ولم يشعر به أحد من الناس وانتهى أمره ، وكان قد أمضى في السلطنة سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يومًا[46] هكذا قتل الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون[47] .

والشيء الجدير بالذكر هنا هو أن المصادر والمراجع التاريخية لم تذكر لنا شيئًا عن مراسم الدفن والعزاء للسلاطين السابق ذكرهم، فقد ماتوا بطريقة بشعة سواء من مات مقتولاً أم مخنوقًا.

---

(44) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص512.

(45) ذكر المقريزي في خططه أنه ذُبح ، راجع: المقريزي، الخطط، جـ3، ص39 مكتبة الآداب.

(46) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص518، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص174.

(47) ذيل تذكرة الحفاظ، جـ1، ص38.

ومن الأحداث السابقة نجد أنه بعد قتل الأخ لأخيه خنقًا يموت القاتل بنفس الطريقة التي قتل بها أخاه ، وهذا من أعظم العبر والمواعظ التي يجب أن يعيها الإنسان.

ومن السلاطين الذين قتلوا ولم يعثر لهم على جثة ولا قبر السلطان الناصر حسن فتذكر المصادر التاريخية أنه في عام (762هـ/ 1360م)[48] قبض بليغ على السلطان الناصر حسن وحبسه ثم خنقه وقتله[49] ورمى جثته في البحر[50] وقيل إن بليغًا عاقبه أشد العقوبة حتى مات تحت العقوبة، ودفنه في مصطبته التي كان يركب عليها بداره التي بالكبش، وقيل في موضع آخر إنه دفن في بعض الكيمان بمصر وأخفى قبره عن الناس[51] حتى أنه لم يدفن في مدرسته التي أنشأها بسوق الخيل[52].

ويتضح مما سبق أن السلطان الناصر حسن لم يُغسل أو يُكفن ولم يُقم له عزاء أو حتى جنازة[53] كسلطان عظيم وكبير من سلاطين المماليك البحرية، وقد قُتِلَ قِتلة بشعة لا تليق

---

(48) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ3، ص502.

(49) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص ص93-94، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص128، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، ص32.

(50) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص112.

(51) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص112.

(52) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص577.

(53) جـ ن ز: الجنازة بالكسر واحدة الجنائز والعامة تفتحه ، ومعناه الميت على السرير ، فإذا لم يكن عليه الميت فهو سرير ونعش ، قلت : هذا مناقض لما ذكره من تفسير النعش في ن ع ش، راجع: محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، جـ1، بيروت سنة 1415هـ/ سنة1995م، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة جديدة، ص48، وجنازة الميت تتم بعد أن يجهز من حيث غسله وتكفينه والصلاة عليه ، تبدأ جنازته في طريقها إلى المقابر لدفن جثمانه، وكان هذا الجثمان يحمل في نعش كما تسميه المصادر العربية، وكان هذا النعش يصنع من الخشب، راجع: المقري، نفح الطيب، جـ4، ص334، قيل سميت جنازة لأن الثياب تجمع والرجل على السرير وجنزوا أي جمعوا، راجع: ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي (ت458هـ/ 1065م)، المخصص جـ6، ط1، بولاق ، القاهرة سنة 1900م، ، ص132، ابن منظور: =

به كسلطان له هيبته بين سلاطين المماليك ، من المرجح أن هذه القسوة والوحشية تأثر بها المماليك من المغول، فمن يدرس تاريخهم ويقرأ ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ليرى بحق أنهم بعيدون كل البعد عن الشهامة والإنسانية[54] ، فحكم المغول يمثل مرحلة مهمة من مراحل التاريخ خاصة مرحلة تاريخ أبناء هولاكو، فقد ارتبطت هذه الفترة ارتباطًا وثيقًا بأحداث الشرق الإسلامي، فيا لها من فترة حافلة بحوادث الفزع والرعب و الدسائس والمؤامرات والخسة والدناءة والغدر والخيانة ، فقد ذكر أنه لما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ عهد جنكيز خان إلى مقتل المستعصم ببغداد سنة 656هـ كثر قدوم المشارقة إلى مصر فقد كانت الفرصة مهيأة لأن تظهر مؤثرات مغولية على المماليك أثناء علاقاتهم الحربية العدائية.[55]

= جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت711هـ/ 1311، لسان العرب، جـ7، سلسلة تراثنا، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، ص189، ابن مفتاح: أبو الحسن عبد الله (ت877هـ/ 1472م)، شرح الأزهار، جـ1، القاهرة سنة1938م، ص399، إبراهيم بن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوطة بدار الكتب القومية، تحت رقم1172، فقه حنفي ميكروفيلم 38286، ص2.

-www.al -zad.net, www.alzaidyah.hasanonline.com.

(54) فؤاد عبد المعطي الصياد والشرق الإسلامي في عهد الأيلخانين (أسرة هولاكو خان)، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية جامعة قطر، سنة1407هـ، سنة1987م، ص15، موضوع العلاقات بين المماليك والمغول موضوع واسع ومتشعب وشائك في آن واحد ، جرى التعرض له من المصادر القديمة سواء أكانت عربية أم فارسية بلغتها الأصلية أم المعربة، مثلاً: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: د. عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة 1396 هـ/ سنة 1976م، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. مراد كامل، القاهرة سنة1961م، ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: د. محمد أمين، القاهرة 1976 ، 1982 ، 1986، المقريزي ، الخطط، طبعة بولاق، جـ2، ص ص220-221.

-Bar Heb raeus, the chronography, trans. from. vriac by wallis Budge, London, 1932.

- The Wafidiya in the mameluk kingdom, no ii in studies on the mamluks of Egypt 1250-1517. London, 1977

صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية (658-783هـ/ 1260-1381م)، منشأة المعارف بالإسكندرية.

(55) فؤاد عبد المعطي الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الأيلخانين، ص15.

لقد تأثر المجتمع المصري المملوكي بالعادات والتقاليد التي حملها هؤلاء بل وتأثر أيضًا بالنظم العسكرية والسياسية والقوانين التي حملوها معهم في نزوحهم إلى مصر أو جلبهم إليها في شكل رقيق من بلاد القرم[56]، هذا وقد غصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم[57]، فقد كان للمغول تأثير كبير على أمراء المماليك في طريقة قتل السلاطين ، فنجد مثلاً السلطان الأشرف زين الدين أبا المعالي شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون[58] الذي قُتل بطريقة غريبة ووحشية عام (778هـ/ 1377م) فقد قبض عليه أمراء المماليك[59] وألبسوه سلاحًا ثم ستروا وجهه

---

(56) لا شك أن نشاط حركة جلب الرقيق من هؤلاء المغول بخاصة من بلاد القبجاق إلى مصر سواء بشكل فردي أم جماعي وانخرط هؤلاء منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي أكثر من شراء هؤلاء المماليك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية، وذلك تمكينًا لنفسه في ولاية العهد وجعلهم بطانته والمحيطة بدهليزه وسماهم البحرية، وهي تسمية سابقة على عصره، راجع: محمد مصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد رقم 4 عدد رقم1 القاهرة سنة 1936م، ص72، صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها، ص3.

(57) إن سلاطين المماليك وعلى رأسهم بيبرس الأول البندقداري بوصفهم عنصرًا دخيلاً على رعاياهم في مصر والشام حرصوا أشد الحرص على الروابط التي كانت تربطهم بأصولهم العرقية من ناحية وبعضهم البعض من ناحية أخرى، وبذلك قامت دولة المماليك الأولى على أساس دعامة من عنصر المغول القبجاق أو العناصر التي عاشت في أرض القبجاق ، ومن هذا العنصر نفسه كان السلاطين المؤسسون لتلك الدولة، وهؤلاء كانوا بارعين في أساليب القتال والفروسية، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ4، ص458، المقريزي، الخطط، جـ2، ص221، صلاح الدين نوار، الطوائف المغولية في مصر، ص ص22-23، وامتد التأثير إلى هيكل الدولة المملوكية، وتم انتشار ظاهرة الزواج من قبل مغوليات سواء كن أميرات أم جاريات من أبناء القادة أم الجند المغول من قبل السلاطين أو الأمراء.

Bertold spuler, History of the Mongols based on eastern and western accounts of the thirteenth and fourteenth centuries.

(58) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص106، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص145.

(59) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص114.

بمنديل وخرجوا به من باب سعادة وصعدوا به إلى القلعة[60] وقتله جركس من مماليك الأتابكي أجاي اليوسفي، فأحضره بين يديه وخنقه بوتر حتى مات بعد عذاب أليم، والشيء الغريب بل والعجيب في هذه الوفاة أن جركس بعد أن قتله وضعه في قفة، وأثنى ظهره نصفين حتى كسره وخيط القفة ونزل من القلعة في الليل على حمار ورماه في بئر عند باب الزغلة، وعندما رمي السلطان في البئر ظل في هذه البئر فترة طويلة فظهرت له رائحة نتنة بل كريهة [61] ومن شدة هذه الرائحة أخرجه بعض جيران تلك الناحية ودفنوه بالكيمان التي بجانب مشهد السيدة نفيسة[62] وعندما علم أحد خدام أم السلطان خونذ بركة أحضر له تابوتًا في الليل ووضعه ثم حمله فيه، وأخذه وذهب به إلى مدرسة أمه في التبانة، وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عليهِ ، ثم حملوا نعشه [63]، وَدُفِنَ في القبة التي تجاه المدرسة بجوار بيت الأمير قرقماس ، والشيء الملاحظ والجدير بالانتباه هو القسوة والوحشية التي تأثر بها المماليك وأخذوها عن المغول، ومن المرجح أن طريقة قصف الظهر نصفين تأثر بها المماليك وأخذوها عن المغول والدليل على ذلك أنه عندما قبض المغول على السلطان أحمد تكوادر وحملوه إلى خصمه أرغون خان[64] بطريقة بعيدة عن الشهامة والنبل فقبضوا عليه (683هـ/ 1284م) [65] وقتلوه وقصفوا ظهره نصفين.

---

(60) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ص ص233-234.

(61) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص76.

(62) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص ص180-181، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص76.

(63) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص76، ن ع ش نعشه الله رفعه وبابه قطع ولا يقال أنعشه الله ، وانتعش العاثر نهض من عثرته والنعش سرير الميت سمي بذلك لارتفاعه واذا لم يكن عليه ميت فهو سرير وهذا مناهض لما سبق في تفسير الجنازة وميت منعوش أي محمول على النعش، راجع: الرازي، مختار الصحاح، جـ1، ص278.

(64) Howorth, History of the Mongols, part 111, the Mongols of Persia London, 1888, Micheal prawdin, the Mongol empire, its and legacy, London, 1967.

صلاح الدين نوار، الطوائف المغولية في مصر، ص77، ولمزيد من التفاصيل عن المغول وطريقة قتلهم، راجع: برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ، خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر ، فؤاد عبد المعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ص127-132، فؤاد عبد المعطي الصياد، =

ومن الغريب أن بعض السلاطين قتل ولم يجدوا أحدًا يصلي عليه بل إنهم اضطروا إلى أن يمسكوا بعض الفقهاء ليصلى عليه وتفاصيل ذلك:

عندما قُتل الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد عام (904هـ/ 1498م)، قتله بعض الأمراء من مماليك أبيه[66] وهذا السلطان مات ميتة غريبة حقًا، فهو من السلاطين الذين لم يجدوا من يصلي عليهم ، عندما قتل ظلت جثته مرمية على الأرض، فعندما دخل الليل حملوه جماعة شيخ الطالبين وأدخلوه في مسجد هناك وألقوه على حصير، فظل ليلة كاملة على تلك الحالة، وعندما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما حدث للناصر أبو السعادات من قتله فاضطربت أحوال المدينة واضطرب أهلها، ولبس العسكر ملابس الحرب وباتوا تلك الليلة في اضطراب وخوف، وقد قُتل مع السلطان الملك الناصر أولاد عمه جانم وأخوه، وعندما علم خال السلطان قانصوة بذلك بعث ثلاثة نعوش إلى الطالبية[67] .

فأحضروا جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه، وذهبوا بهم إلى بيت الأشرف قايتباي الذي أنشأه بالقرب من حمام الفارقاني، فغسلوا السلطان وأولاد عمه هناك، وخرجت النعوش الثلاثة ولم يكن معهم غير الحمالين فقط فأتوا بهم إلى باب الوزير فلم يجدوا من يصلي عليهم حتى إنهم أخذوا بل أمسكوا بعض الفقهاء ليصلي عليهم ثم توجهوا به إلى تربة الأشرف قايتباي، فدفنوا الملك الناصر مع أبيه داخل القبة وأولاد عمه بالقرب من السلطان[68] .

= مؤرخ المغول الكبير (رشيد الدين فضل الله الهمذاني)، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1967م، ص ص60-61 ، د. محمد أحمد موسى هياجنة ، المغول والمماليك، مكتبة الحرمين والعلوم والتكنولوجيا، إربد، ص57 ، فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، جروس برس سنة 1995م ، ص 67 .

(65) فؤاد عبد المعطي الصياد ، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ص127-132.

(66) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص142.

(67) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص402.

(68) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص403.

ومن الواضح أن هذا السلطان لم يقم له عزاء بدليل أننا لم نجد أحدًا يصلي عليه إلا بصعوبة بالغة، على الرغم من أنه سلطان وله هيبته ومكانته بين الناس إلا أننا لا نجد مراسم لا للدفن ولا للعزاء، وإن فرض أن أقيم له عزاء فنحن نرجح أن لا أحد من الناس حضر هذا العزاء بدليل أننا لم نجد أحدًا صلى عليه.

أما عن الملك الأشرف أبي النصر جنبلاط ، فقد بعث العادل الأشرف قانصوة الغوري من يخنقه وهو في البرج فخنق ودفن بالإسكندرية[69] ولم نسمع بمراسم دفن أو مراسم عزاء أقيمت له.

ومن السلاطين الذين قُتلوا ولم يُعرف أين ذهبت جثثُهم وأين هو قبرهم وكأن الأرض ابتلعت جثته هو السلطان قانصوة الغوري فقد قتل في موقعة مرج دابق عام (922هـ/ 1516م) وقد قتل بطريقة غريبة ومهينة ففي تلك الموقعة عندما رأى الهزيمة تحل به هو وجيشه، أراد أن يرجع إلى حلب فلما أخذ فرسه ليهرب وينجو بنفسه أخذ يرتعش ويرتجف وأغمي عليه فسقط من على ظهر فرسه وارتمى ووقع على الأرض ففاضت روحه إلى السماء فمات في تلك الساعة وهو ملقى على الأرض، والشيء المثير للغرابة أنه لم تُعرف له جثة ولم يُرَ له جثة ولا رأس، حتى القبر لم يُعرف له مكان ، فكأنما ابتلعت الأرض جثته، ومن الغريب أنه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها قرابة مائة ألف دينار، فصار ملقًى في البراري وقد تناهشته الذئاب والنمور [70] هذا وقد قيل إنه قتل تحت سنابك الخيل[71] .

وهناك من السلاطين من قتل شنقًا أمام جميع البشر مثلما حدث مع الملك الأشرف أبي النصر طومان باي ، فقد كانت ميتته أمام جمع غفير من البشر، فقد شنق على باب

(69) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ5، ص87، حوادث سنة 922هـ .

(70) محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ2، ص55، راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص96.

(71) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ5، ص87 ، الشوكاني، البدر الطالع، جـ2، ص55.

زويلة[72] (922هـ-923هـ/ 1516-1517م)، فلما شنق وصعدت روحه صرخ عليه الناس صرخة كبيرة وشديدة للغاية، وكثر عليه الحزن والأسف[73].

وظل الأشرف طومان باي مُعَلقًا على باب زويلة ثلاثة أيام حتى جافت (فاحت) رائحته، وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتًا ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه[74]، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة[75].

هكذا نجد أن الكثير والكثير بل معظم سلاطين المماليك قُتلوا، وكانوا هم الذين يقتلون بعضهم البعض نظرًا لأن كل شخص كان يرى في نفسه أنه الأقدر والأقوى على أن يكون هو السلطان، فكان القتل هو مصير السلطان دائمًا خاصة عندما يكون ضعيفًا، بل نجد الأكثر والأصعب من ذلك أنه عندما يقتل السلطان نجد أنه لم تُعطَ له هيبة أو حُرمة أو على الأقل يُكرم وتُقام له مراسم للدفن وللعزاء، فمراسم الدفن تتم حينما يُجهز السلطان من غُسل وتكفين ودفن ثم مراسم العزاء وهي أن يؤخذ عزاء السلطان، وقراءة القرآن ومد الأسمطة....، ولكن نجد أن مصير السلطان قاسٍ ومؤلم للغاية وتكون نهايته نهاية حزينة ومؤلمة.

وقد سطر التاريخ هذه النهاية الحزينة ، حتى إننا جميعًا نعلم أن إكرام الميت دفنه ومواراته وستر جسده، فلم تُراعَ حُرمة السلاطين السابق الحديث عنهم عندما قُتلوا، فقد كان يجب مراعاة أنه سلطان وناموس المُلك مطلوب من كل واحد من الملوك حتى لو كان بينهم عداوة وخصومة فإنهم لهم غيرة على الملوك فإكرام الميت حتى ولو كان فقيرًا أو غنيًّا أو مسلمًا أو كافرًا أو حتى لم يكن له ملة فإكرام أي ميت أيًّا كانت جنسيته وديانته دفنه، وهذا ما لم نجده في السطور السابقة.

---

(72) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص176.

(73) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ5، ص176، حوادث عام 923هـ.

(74) عبد المنعم ماجد، طومان باي، ص176.

(75) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ5، ص176، حوادث سنة923هـ.

وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من السلاطين من قتل ومات وأقيمت له مراسم للدفن والعزاء كسلطان ابن سلطان فهذا الوحيد الذي حفظت له حُرمته وهيبته وعُومل معاملة السلاطين فعندما مات الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس بالكرك[76] وقيل إن سبب موته أنه كان يركب فرسه في الميدان[77] فوقع من على فرسه وهو يلعب بالكرة فَصُرِعَ وحُم أيامًا ومات[78] هذا وقد قيل إنه سُم[79] وقد بدأت مراسم الدفن والعزاء تأخذ مجراها الطبيعي والعادي، فقبل أن يبدأ السلطان المنصور قلاوون العزاء بدأ في تجهيزه وتغسيله[80] وتكفينه.

ومن مظاهر مراسم العزاء أن عمل له السلطان المنصور قلاوون مراسم للعزاء وذلك بالإيوان من قلعة الجبل، وجلس حزينًا يلبس البياض[81]، وقد حضر العلماء والقضاة والأمراء والوعاظ والأعيان في العزاء، فكان يوم عزائه يومًا مشهودًا وظل القراء شهرًا يقرأون القرآن، وصدرت المراسيم لمصر والشام بأن يصلى عليه صلاة الغائب[82] . هذا

(76) الدواداري: أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د.سعيد عبد الفتاح عاشور، جـ8، القاهرة، سنة 1972م، ص15، محيي الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص296، الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ5، ص321.

(77) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص346، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص296.

(78) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص669، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص296.

(79) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص296، المقريزي ، السلوك، جـ1، ق3، ص669.

(80) قال يحيى بن الحسين صلوات الله عليه، بلغنا عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : "أيما امرئ مسلم غسل أخاه المسلم فلم يقذره ولم ينظر إلى عورته ولم يذكر منه سوءًا ثم شيعه وصلى عليه، ثم جلس حتى يدلى في قبره خرج عطلا من ذنوبه" ، راجع يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام (245-298) الأحكام في الحلال والحرام، جمعه:علي بن أبي حريصة، جـ1، ط3، منشورات مكتبة التراث الإسلامي سنة 2003م، ص150، وقد قيل عن غسل الميت في موضع آخر : إذا مات المسلم وجب تغسيله على من حضره بإجماع المسلمين، راجع: د. محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسُّنة على المذاهب الأربعة، جـ1، ط2، دار المنار سنة 1997م ، ص77.

(81) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص669.

(82) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص297.

وقد أقيم عزاء السعيد بركة خان في جميع أنحاء البلاد، ومن مظاهر العزاء أيضًا أن قُدِّمَتْ فيه الأطعمة الفاخرة والحلوى، وقد أكل كل من حضر للعزاء في الملك السعيد بركة خان.

ومن مظاهر الحزن على الملك السعيد بركة خان أن خرجت الخوندات[83] حاسرات معهن الجواري يلطمن بالملاهي والدفوف أيامًا عديدة[84] هذا بالإضافة إلى حزن زوجته على موته حزنًا شديدًا لفراقه وفقده، ومن مظاهر حزنها عليه أنها بكت عليه بكاءً شديدًا ولم تتزوج بعده لشدة حزنها عليه وعلى فراقه إلى أن ماتت بعده بفترة قليلة[85].

أما القسم الثاني من البحث فيتضمن السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية وسوف يأتي الحديث في هذا الجزء عن مرض السلاطين ثم وصيتهم التي أوصوا بها قبل الوفاة ثم وفاتهم، ثم نتطرق إلى مراسم دفنهم وعزائهم التي اختلفت من سلطان لآخر.

---

(83) الخوندات، الخوند معناه السيدة ومنها الخوند وهي لفظ أعجمي، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ6، ص78، ربما يكون المقصود بها الخوندات السلطانية وزوجات السلطان، راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ7، ص182.

(84) قال (ﷺ) : ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية، راجع: ابن الحاج، المدخل، جـ3، ص232، البخاري، صحيح البخاري، جـ2، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط3، سنة 1416هـ/ 1996م، ص375، وورد في السُّنن الكبرى للبيهقي في الجزء الرابع، ص63، جزء من حديث ابن عمر والحديث بتمامه : "أن رسول الله (ﷺ) لعن النائحة والمستمعة والحالقة والسالقة والواشمة والمستوشمة ، وقال : (ليس للنساء في اتباع الجنائز أجر)". راجع: عبد القادر أحمد عبد القادر، إسبال الكساء على عورات النساء، دار الوثائق للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق سنة 2006م، ص91، راجع: يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، (245- 298هـ)، كتاب الأحكام في الحلال والحرام، جمعه: علي بن أحمد بن حريصة، جـ1، ط3، منشورات مكتبة التراث الإسلامي، ص150، الميت يتأذى بنوح أهله عليه مطلقًا، راجع: ابن تيمية، مجموع الفتاوى الكبرى للإمام ابن تيمية مرتبًا على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، جـ1، دار الفكر العربي للطباعة والنشر سنة 1993م ، ص83.

(85) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ7،ص218، أحداث سنة 675هـ، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص297.

هذا ومن الملاحظ أن جميع السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية كانوا قد أصيبوا بمرض البطن والإسهال الدموي ، فمن السلاطين الذين ماتوا بمرض البطن والإسهال الدموي الظاهر بيبرس ، ففي عام (676هـ/ 1276م) جلس الملك الظاهر بيبرس بالجوسق الأبلق[86] بميدان دمشق[87] ليشرب القمز[88] وفي اليوم التالي وجد في نفسه مرضًا وتوعكًا شديدًا، ومن شدة المرض أخذ يشكو إلى الأمير شمس الدين سنقر الأفي السلحدار، فأشار عليه بالقيء، فحاول أن يتقيأ ولكن استعصى عليه، وقيل إنه خرج وركب بعد صلاة الجمعة من الجوسق إلى الميدان كما تعود والألم يتزايد عليه باستمرار، وزادت عليه شدة الألم في بطنه[89] فصنع له بعض خواصه دواء وهذا الدواء لم يكن بنصيحة طبيب بل هو مجرد وصفة، وعندما حضر الأطباء أنكروا استخدامه لهذا الدواء وذكروا أنه ليس صحيحًا، واجتمع رأيهم أن يأخذ دواء مسهلاً[90].

ولكن السلطان أخذ الدواء ولم يحدث أي نتيجة، وأعطوا له دواءً آخر كان سببًا في أن تتضاعف عليه الحُمى التي أُصيب بها إلى أن ضعفت قواه وتزايد عليه

---

(86) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، جـ5، ط2 مصورة، مطبعة حكومة الكويت سنة 1948م، ص307، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175.

(87) المقريزي، الخطط، جـ3، ص387، مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175 ومحمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، جـ1، دار النفاش، بيروت سنة 1403هـ.

(88) ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينز بفيسبادن سنة 1403هـ/ 1983م، ص222، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175.

القمز: نبيذ يعمل من لبن الخيل، واللفظ تتري الأصل، وقد كان السلطان شغفًا بهذا النوع من الشراب، راجع: المقريزي، السلوك، حاشية (2) ص67.

(89) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص222، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175.

(90) راجع الدواداري، كنز الدرر، جـ8، ص ص210-211، المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص636 ، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص338، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175.

المرض وكان مرض الحمى سببًا في موته وقضاء نحبه[91]، بعد أن تجاوز الخمسين عامًا[92].

ومن السلاطين الذين مرضوا بالإسهال الدموي والبطن السلطان الصالح علي ابن المنصور سيف الدين قلاوون وذلك عام (687هـ/ 1288م) وأحداث ذلك عندما خرج السلطان المنصور سيف الدين قلاوون من القاهرة في طريقه لبلاد الشام اصطحب معه ابنه الملك الصالح، فحضر السماط ثم عاد الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون إلى قلعة الجبل، وقد بدأ مرض الصالح عندما عاد إلى قلعة الجبل فأحس بألم شديد في قلبه وبطنه وكثر إسهاله الدموي[93] فزاره السلطان ولم يشفَ على العلاج الذي أخذه، وعندما عاد السلطان إلى الدهليز جاءه الخبر بشدة مرض الملك الصالح فعاد إلى القلعة، ومات الصالح علي وكان سبب وفاته هو مرضه بدوسنطاريا كبدية[94] وقيل إن الملك الأشرف خليل سمه[95].

وهذا وقد أُصيب أيضًا الناصر محمد بن قلاوون بالإسهال الدموي[96] ومرض مرضًا شديدًا وتضاعفت عنده الحُمى حتى أن قوته نقصت بدرجة كبيرة، وكان يغمى عليه ويغيب عن الوعي[97].

---

(91) ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، جـ1، ص253، المقريزي، السلوك، جـ1، ق1، ص641، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ص222-223، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175.

J. Sauvaget, la poste aux chevaux Dans (sempire Des Mamelauks, pairs (vI) 1941, pp29-30).

(92) عبد الحميد صالح حمدان، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702هـ، تأليف: بيبرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية، ص61.

(93) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص288.

(94) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص288.

(56) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص744، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص288.

(96) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص162.

(97) شمس الدين الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، جـ2، ق1، فرانز شتاينر فيسبادن سنة 1978م، ص101.

وقد كان مرض البطن والحُمى سببًا في وفاة السلطان الظاهر برقوق، فقد بدأ مرض الظاهر برقوق حينما ذهب للعب الكرة كعادته في الميدان بالقلعة، وكان اليوم الذي مرض فيه السلطان قد تناول فيه أطعمة مختلفة ومختلطة في أنواعها فكان خلطًا رديئًا وسيئًا[98] في يوم شديد الحر، وظل السلطان في الفراش مدة طويلة نتيجة لحمى أصابته[99] في جسده حتى إن المرض اشتد عليه، أيضًا كان مرض البطن والإسهال المفرط[100] وعسر البول ووجع المفاصل[101] سببا في وفاة السلطان المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري، وظهرت عليه علامات الاحتضار[102] نتيجة الإسهال المفرط[103]، ومن شده المرض عند السلطان الأشرف برسباي الذي أصيب بمرض القولنج لزم الفراش وأخذ المرض يتزايد عليه حتى أنه ضعف جدًا وعجز عن القيام ومنعوا الأمراء من الدخول عليه من شده مرضه[104] وقد مرض السلطان الظاهر سيف الدين أبي سعيد محمد جقمق العلاي الظاهري وانحسر عنه البول ولكنه كان يصبر[105] ويتحمل آلام المرض، وازداد المرض على السلطان[106] عام 857هـ/ 1453م واستمر في الفراش[107] وانقطع عن ظهوره

(89) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص524، ابن تغري بردي، النجوم الزاهر، جـ12، ص102 .

(99) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان عمر شكري، ص491.

(100) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص106، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص59.

(101) العيني: بدر الدين العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، حققه وقدم له: فهيم محمد شلتوت، راجعه:د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب للطباعة والنشر سنة 1966- سنة 1967م، ص ث، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص106.

(102) المحتضر على صيغه اسم المفعول ، وذكر في النهاية : فلان محتضر أي قريب من الموت ، واحتضر مات أيضاً لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت، راجع: إبراهيم البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، ص5.

(103) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص106، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص59.

(104) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص9، السيوطي، تاريخ الخلفاء، جـ1، ص509.

(105) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ2، ص351.

(106) راسم رشدي، مصر والشراكسة ، ص73.

(107) ابن إياس، الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر محمد أبي سعيد جقمق سنة1951م، ص1، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص74.

للناس وأصبح مزاجه حادًّا للغاية، واستمر على ذلك حتى اشتد مرضه للغاية وظهرت عليه علامات الموت[108] وقد كان الألم شديدًا في جسده والإجهاد والتعب ملازمين له وأغمي عليه باستمرار وكان يظهر أنه بخير[109] ولكن الموت كان قريبًا منه[110]. ومن السلاطين الذين حدثت لهم حُمى في جسدهم السلطان الملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي 872هـ/ 1467م فلزم الفراش[111]. وقد كانت هناك عادة تحدث عندما يمرض السلطان وهي أن ينزل السلطان بفرس من الإصطبل السلطاني ويعرض الفرس للبيع على جماعة من الأمراء، فاشتراه أحد الأمراء بـ 500 دينار، وقيل اشتراه بألف دينار، ولكن السلطان تصدق بها في مرضه، فبعد أن يشتريه الأمير يتصدق السلطان بثمنه على الفقراء، وقد فعل هذا الملك الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف برسباي، وكان ينزل أمير أخور من باب السلسلة وهو راكب على الفرس فيبدأ بأمير كبير أولاً ثم بقية الأمراء فيشتريه من هو أقرب إلى السلطان من الأمراء[112] وقد مرض السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري بمرض الإسهال الدموي وأُصيب بحُمى في جسده ولزم الفراش وثقل عليه المرض وأخذ الألم يتزايد عليه وكثر الإسهال المفرط حتى أنه عجز عن الحركة[113] وزاد عليه مرض البطن[114] وامتنع عن الطعام مدة إلى أن مات.

---

(108) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص ص299-300، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص452، قيل إنه ركدت ريحه وضعف عن الحركة، راجع: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، جـ1، الهيئة المصرية للكتاب، ص9.

(109) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص74.

(110) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص298.

(111) ابن تغري بردي، مورد اللطافة ، جـ2، ص175، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص304 .

(112) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص453 .

(113) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ3، ص323.

(114) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ2، ص56.

ونحن نرجح أن مرض معظم سلاطين العصر المملوكي بمرض البطن والإسهال الدموي حدث نتيجة تناول الأطعمة المختلفة ؛ إذ إن السماط كان يُمد وبه أشهى وأفخم المأكولات وبه الطعام الحلو والطعام المالح والطعام الدسم وغير ذلك من أطعمة مختلفة وكان السلاطين يلتهمون مختلف الأطعمة في وقت واحد ودون إراحة لمعدتهم من الطعام فمن المحتمل أن يكون مرض البطن والإسهال الدموي نتيجة الخلط السيئ والرديء في الطعام بأنواعه.

وهناك من السلاطين من مات من شدة الخوف والرعب مثل السلطان الصالح إسماعيل 746هـ/ سنة 1345م، فقد مات من الرُّعب وشدة الخوف[115] ؛ فبعد قتل أخيه أحمد في الكرك جاء الأمير منجك ومعه رأس الأمير أحمد من الكرك بعد قتله فلما رأى ذلك السلطان الصالح إسماعيل فزع[116] وخاف خوفًا شديدًا وتغير لونه، حتى قيل إنه كان يحلم ويراه في نومه، ثم بدأ يرى الأحلام المفزعة، وطال مرضه، وكثرت رعشته وزادت أفزاعه حتى أصيب بالقولنج ومات[117] بعد صراع شديد مع المرض[118].

ومن السلاطين الذين ماتوا واشتد عليهم المرض المؤيد شيخ المحمودي الظاهري، والسلطان الظاهر سيف الدين ططر الذي اشتد عليه المرض[119] إلى جانب الملك الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلاي الظاهري برقوق الناصري فرج الذي صار ألم المرض يتزايد عليه حتى أشيع أنه مات[120] من كثرة آلام المرض، وقد مرض هذا السلطان ومات بألم المحاشم[121].

---

(115) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص78 .

(116) المقريزي، الخطط، جـ3، ص390، مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص93.

(117) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص98.

(118) حسن إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص108.

(119) السخاوي، الضوء اللامع، جـ4، ص7، المقريزي، الخطط، جـ3، ص396.

(120) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص156، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص366.

(121) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص367.

الوصية واختلافها من سلطان لآخر :

أما بالنسبة إلى الوصايا التي أوصى بها السلاطين قبل وفاتهم فقد اختلفت من سلطان لآخر حسب الموقف الذي كان قد توفي فيه ، ولكن نجد أن جميع السلاطين بل معظمهم كان قد أوصى بولاية العهد إلى ابنه أثناء مرضه ، مثلما فعل السلطان الظاهر بيبرس فقد أوصى بولاية العهد لابنه السعيد بركة خان وأرسل له رسالة فيها أنه يجب أن ينتبه في المعاملة مع أكابر الأمراء لأنهم ينظرون إليه بعين الصبي الصغير الذي لا يستطيع أن يتحكم في زمام الأمور وقد ذكر في ذلك : "فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحدًا في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك"[122] ، ويتضح من هذا أن السلطان يوصي ابنه بأن يقضي على الأمراء الذين يثيرون المشاكل، وكذلك أوصى السلطان الناصر محمد بن قلاوون بولاية العهد من بعده لابنه أبي بكر[123] فعندما رأى الأمراء خطورة مرض السلطان بدأوا في تدبير الأمور وحاولوا الدخول إلى السلطان وبالفعل دخلوا إليه، وبدأوا في الحديث معه على أن يعهد لأحد أبنائه بالحكم من بعده فاستجاب لطلبهم وعهد بالحكم إلى ابنه أبي بكر كما سبق أن ذكرنا، وبدأ يوصيه بالأمراء وأوصى الأمراء به، وعهد إليهم أن لا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك وتضمنت وصيته أن يكون كلٌّ من قوصون وبشتاك أوصياء على ابنه أبي بكر وتدبير المملكة وبعد أن ذكر لهم ما يجب فعله أخذ يُحلفهما وقد حلَّف السلطان الأمراء والخاصكية، وشدد على ولده في الوصية بالأمراء، وأفرج عن الأمراء المسجونين بالشام[124] .

---

(122) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، هامش (2) ص224، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ص440.

(123) ابن الوردي: زيد الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، جـ2، ص382، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط2، مكتبة النهضة المصرية سنة 1948م، ص91، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص103 ، الشجاعي، تاريخ الناصر محمد بن قلاوون، جـ2، ق1، ص105.

(124) المقريزي، السلوك، جـ2، ق2، ص513.

وقد أوصى أيضًا السلطان برقوق بولاية العهد من بعده لابنه الأمير فرج فقد قيل إنه عندما كان مريضًا وأفاق من غيبوبته استدعى الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدًا، وكبار الرجال مثل شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وقضاة القضاء الأربعة[125] وسائر الأمراء الأكابر والأصاغر، وجميع أرباب الدولة إلى حضرة السلطان، وبعد أن اجتمع الجميع بدأ الحديث معهم بولاية العهد لأولاده من بعده، وبدأ بالحلف للأمير فرج ابن السلطان[126] على أن يكون هو السلطان بعد وفاة أبيه، وبعد ذلك حلف القضاة والأمراء وتولى تحليفهم كاتب السر فتح الله وكان ملازمًا للسلطان أثناء مرضه ؛ وذلك لأن السلطان كان يثق به[127] ، هذا وقد تضمنت وصية السلطان أيضًا أن يكون الأمير أيتمش البجاسي[128] هو الوصي على دولة ابنه فرج بالإضافة إلى أنه الوصي على تركته والقائم بتدبير الأمور وأن يكون معه الأمير تغري بردي أمير سلاح والأمير بيبرس الدوادار والأمير يشبك الخازندار وفتح الدين فتح الله كاتب السر والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوي وسعد الدين إبراهيم بن غراب وغيرهم من الأمراء وجعل الخليفة ناظرًا على الجميع[129] وتم الحلف لفرج بن برقوق[130] ، هذا وقد أوصى أيضًا السلطان المؤيد شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري لابنه الرضيع أحمد بولاية العهد من بعده عندما اشتد المرض عليه فبعث السلطان إلى الخليفة والقضاة الأربعة وأخبرهم بأن السلطة من بعده لولده أحمد – وكان طفلاً رضيعًا – وجعل الطبنغا القرمشي هو المسئول عن المملكة إلى أن يحضر الأتابكي الطنبغا من حلب، وحلف الأمراء على ذلك وحلف

(125) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص102، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص160.

(126) الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب سنة 1970م، ص494، العسقلاني، أنباء الغمر، جـ2، ص51، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص102.

(127) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص525.

(128) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص160.

(129) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص525 .

(130) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص525 .

المماليك أيضًا[131] وقد كانت هذه آخر أيامه، فقد اشتد عليه المرض فظهرت عليه علامات الاحتضار[132] بالإضافة إلى وصية الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي بعد أن اشتد عليه المرض[133] ولزم الفراش[134] والتي تضمنت ولاية العهد إلى ولده محمد من بعده[135] في وجود الخليفة والقضاة الأربعة وقد حلف الأمراء والعسكر، وقد أوكل تدبير أمر المملكة لجاني بك الصوفي وبرسباي الدقماقي[136]، هذا وعندما مرض السلطان الأشرف برسباي رأى الأمراء حالة السلطان في تدهور مستمر وأنه يجب أن يتحدثوا معه في أمور السلطنة وولاية العهد، فتحدث معه في هذا الأمر القاضي عبد الباسط وكان من كبار رجال الدولة والأمير جوهر اللالا، لكي يعهد بأمور الحكم والسلطنة إلى ابنه يوسف[137] فطلب منهم أن يحضروا الخليفة والقضاة الأربعة[138]، بالإضافة إلى أنه طلب الأتابكي جقمق العلاي وسائر الأمراء، وعهد إلى ولده المقر الجمالي يوسف بالسلطنة من بعده[139]، وقد كان القائم بكتابة هذه الوصية القاضي شرف الدين ابن العجمي نائب كاتب السر، وقرأ على السلطان الوصية والعهد وأمضى السلطان هذه الوصية، وشهد الخليفة والقضاة الأربعة عليه بالإمضاء، وقد حلف جميع الأمراء المماليك وغيرهم وأنفق عليهم الأموال ووصاهم بأن يكونوا عصبة واحدة

---

(131) العسقلاني، أنباء الغمر، جـ3، ص237، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص57.

(132) المحتضر على صيغة اسم المفعول، وذكر في النهاية : فلان محتضر أي قريب من الموت، واحتضر مات أيضاً لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت، راجع: إبراهيم البولوي، رسالة أحكام الجنائز، ص5.

(133) المقريزي، الخطط، جـ3، ص396، السخاوي، الضوء اللامع، جـ4، ص7.

(134) السخاوي، الضوء اللامع، جـ4، ص7.

(135) العسقلاني، أنباء الغمر، جـ3، ص250، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص206، السيوطي، تاريخ الخلفاء، جـ1، ص509، الدمشقي، شذرات الذهب، جـ4، ص166 .

(136) السيوطي، تاريخ الخلفاء، جـ1، ص509، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص71، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص 206.

(137) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص9، السيوطي، تاريخ الخلفاء، جـ1، ص509 .

(138) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص102.

(139) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص187، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص102.

بعضهم البعض وأوصاهم بعدم حدوث فتنة، مع بعضهم البعض[140] وقد جعل السلطان برسباي الأتابكي جقمق الوصي على ولده من بعده[141] وجعله هو نظام الملك والمتصرف في أمور المملكة، وبعد ذلك أخلع على الخليفة والقضاة وانفض المجلس، وبعد الوصية توفي السلطان[142].

ومن السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذي مات دون أن يوصي بأي وصية ودون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل، لأنه كان يعلم أنه مكروه من الأمراء لاستهانته بهم[143].

وممن لم يكن له وصية أيضًا من السلاطين الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي فقبل وفاته لم يوصِ بأي وصية، والدليل على ذلك أن الأمراء عندما أدركوا موت السلطان اجتمعوا في المقعد عند باب السلسلة عند المقر الشهابي[144] أحمد بن العيني أمير أخور كبير وغيرهم من كبار الأمراء فتشاوروا فيما بينهم فيمن يلي أمر السلطنة إذا مات السلطان، وكان رأيهم أن أمير كبير يلباي أحق بالسلطنة[145].

هذا ولم يكن للسلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري وصية والدليل على ذلك أنه عندما كان في آخر أيامه تحدث الأمراء مع السلطان في أمور الدولة وقالوا له إن أحوال الدولة قد فسدت ومن الأفضل أن يعهد بالحكم إلى ابنه ولكن السلطان لم يرد عليهم، فأخذ الأتابكي تمراز بن السلطان الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ونزل به إلى باب السلسلة، وأرسلوا إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز فحضر، وحضر القضاة الأربعة، وحضر الأمراء والعساكر، وعندما اكتمل المجلس تكلموا في خلع الأشرف قايتباي بحكم أنه لا يدري بمن حوله وهو في

(140) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص187.

(141) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص9.

(142) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص187، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص102.

(143) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص73.

(144) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص454.

(145) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص306.

سكرات الموت فبايع الخليفة ابن السلطان قايتباي عوضًا عن أبيه الأشرف قايتباي وكان شاهدًا على ذلك القضاة[146] كل هذا والسلطان لم يشعر بشيء يحدث حوله ولا يدري بما يجري أو يحدث[147] وقد قيل إن السلطان الأشرف قايتباي لو كان واعيًا بما يحدث لما أمكن الأمراء بأن يسلطنوا ابنه ولم يكن هذا غرضه قَطُّ[148] .

وتضمنت وصايا السلاطين أن يعهد الأخ لأخيه بالحكم وليس لابنه مثلما حدث مع السلطان الصالح إسماعيل عندما أوصى قبل وفاته بتولية أخيه شعبان[149] الحُكْمَ.

ونلاحظ مما سبق أن الصالح إسماعيل أوصى لأخيه بالحكم وقد يكون هذا لأنه لم يكن لديه أبناء يعهد إليهم بالحكم كما حدث مع معظم سلاطين المماليك، أو ربما كان لديه أبناء ذكور ولكنه خشي عليهم من دسائس ومؤامرات الأمراء مع بعضهم البعض فخاف على أبنائه من ذلك ، لأننا نعلم أنه مات من شدة الخوف بعد أن رأى رأس أخيه المقتول - كما سبق أن ذكرنا -.

وهناك من السلاطين من خلع نفسه من الملك وأوصى لابنه بالحكم من بعده وهو حي مثلما فعل السلطان جقمق الذي أحس بدنو أجله وزيادة حدة المرض فبدأ يتكلم مع بعض المقربين منه من خواصه بأن يخلع نفسه من الملك[150] وأن يعهد لولده عثمان[151]

---

(146) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ3، ص324.

(147) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ3، ص333، عبد الرحمن محمود عبد التواب، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1978م، ص ص17-18.

(148) ذكر الدكتور سعيد عاشور أن السلطان الأشرف قايتباي تنازل عن السلطنة لابنه بعكس ما ذكرته المصادر الأخرى أنه لم يتنازل ولكن الأمراء هم الذين سلطنوا ابنه، راجع: سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص176 .

(149) المقريزي ، السلوك، جـ2، ق3، ص680.

(150) ابن تغري بردي ، مورد اللطافة، جـ2، ص160، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ15، ص452، المقريزي ، الخطط، جـ3، ص399.

(151) ابن إياس، الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر جقمق، ص1، سعيد عاشور، العصر المماليكي ، ص172، و هو الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ابن الملك الظاهر جقمق محمد العلاي ، راجع: المقريزي، الخطط، جـ1، ص452 ، طبعة بولاق.

وهو حي على وجه الأرض، فبعث السلطان إلى الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله حمزة، والقضاة الأربعة والأتابكي إينال الأجرود، أرباب الدولة من أهل الحل والعقد، وعندما اكتمل المجلس بدأ أمير المؤمنين حمزة وقال إن السلطان عهد في حياته بولاية العهد إلى ابنه عثمان، وأحضروه حتى قبل المبايعة، وتولى السلطنة في حياة والده، في الوقت الذي استمر فيه الظاهر جقمق في الفراش بعد أن عهد إلى ولده حتى مات[152].

وممن خلع نفسه أيضًا من السلطنة وولى ابنه الحكم وهو حي على وجه الأرض السلطان برقوق الناصري فرج، فعندما ظهرت على السلطان علامات الموت تحدث معه جماعة من خواصه بأن يخلع نفسه من الملك[153] ويولي السلطنة لابنه أحمد[154] فأمر السلطان المريض بحضور الخليفة والقضاة الأربعة، وكبار رجال الدولة وعندما اجتمعوا كان السلطان في نهاية حياته وبداية الموت، فخلع السلطان نفسه من السلطنة وشهد الحاضرون على ذلك، وبايع الخليفة ابنه بالسلطنة وأحضر إليه شعار السلطنة، وعاش السلطان بعد ذلك يومًا واحدًا[155] بعد أن ولي ابنه السلطنة.

أما عن وصايا السلاطين الأخرى والتي أوصوا بها قبل موتهم فهناك من أوصى بأن يُدفن في مكان معين يحبه السلطان مثلما أوصى السلطان الظاهر بيبرس بأنه إذا مات يُدفن على الطريق السالكة[156] قريبًا من داريا[157] وأن يبنى

(152) السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، حرره: د. فيليب متى، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك سنة 1927م، ص103، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص ص299- 300، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص74.

(153) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ3، ص558، المقريزي، الخطط، جـ3، ص396، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص156.

(154) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص156.

(155) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ3، ص558.

(156) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص176.

(157) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة: راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص111.

-William Muir, the Mameluk or Slave Dynasty, P32.

عليه هناك[158] بناء يبقى أثره على الزمن ويستوهب له من مر عليه من الله العفو والأمان[159].

وقد أوصى السلطان الظاهر برقوق بأن تُبنى له تربة تحت الجبل بجوار تربة الأمير يونس الدوادار[160] خارج باب النصر بـ 180 ألف دينار ويشتري بالمتبقي من العمارة عقار ليوقف عليها وأن يُدفن بها في لحد تحت أرجل الفقراء الذين بحوش الخليلي[161] وقد اختار السلطان أن يدفن بجوار الصالحين وأن يدفن دفن السنة في اللحد بخلاف الدفن في الفساقي[162]، وأوصى السلطان أيضًا أن يعمل في هذه التربة جماعة من الصوفية ويرتب لهم طعام وخبز وزيت وصابون وحلوى[163] وتضمنت وصية السلطان أيضًا شيئًا غريبًا لم نره في وصايا السلاطين جميعهم، وهو أنه أوصى لزوجاته وسراريه وخدامه بمائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار[164]، هذا وقد تصدق السلطان وهو في مرضه على الفقراء والعلماء بأربعة عشر ألف دينار وستة وتسعين دينارًا[165] خارجًا عما أنعم به على العجائز والأرامل والأيتام[166] وقيل إن ما تصدق به السلطان في يوم واحد خمسة عشر ألف إفرنتي[167].

---

(158) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص461، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص175 .

(159) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ص225-226.

(160) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ص494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص104، العيني ، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص491.

(161) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص525.

(162) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص493.

(163) الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص495.

(164) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص102

(165) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص104

(166) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص526.

(167) الإفرنتي عمله نقدية وهي إفلوري عند الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص493، وقد كانت قيمة كل إفرنتي في ذلك اليوم ثلاثين درهمًا. راجع: العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص492.

ومن السلاطين من ألغى رسومًا كانت مقررة على التجار مثلما فعل السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي الذي أرسل مع أمير الحج مرسومًا بإبطال ما كان مقررًا على أمير مكة المشرفة وأعيان التجار من التقادم للأمراء إذا حجوا أعيان الدولة فأبطل ذلك جميعه[168] فدعا له أهل مكة.

مراسم الدفن والعزاء عند سلاطين المماليك:

لا شك أن مراسم الدفن والعزاء في عصر سلاطين المماليك اختلفت من سلطان لآخر وتمثلت في تجهيز السلطان وجنازته ومراسم عزائه (تجهيز السلاطين) وقد اختلف تجهيز السلاطين من سلطان لآخر، فعندما مات السلطان الظاهر بيبرس بدمشق[169] أخفى الأمراء خبر وفاته[170] وحملوه إلى القلعة حتى لا يشعر عامة الناس بوفاته، ومنعوا من هو داخلها من المماليك من الخروج ومن هو خارجها من الدخول، وقد بدأت مراسم تجهيز السلطان للغُسل، فقد تولى غسله وتحنيطه[171] وتصبيره وتكفينه رجل يُدعي مهتار[172]

---

(168) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص75.

(169) الصفدي، نزهة المالك والمملوك، تحقيق: د. عمر عبد السلام، ص157.

(170) الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ5، ص307، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص223، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ4، ص132، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص265.

(171) التحنيط: هو حفظ الجسد سليمًا بعد الموت ومن الأمور المهمة لسعادة الميت في حياته الآخرة كما رأى قدماء المصريين، لذلك أصبح واحدًا من أهم أهداف الإجراءات الجنزية منذ فترة مغرقة في القدم، وتستغرق هذه العملية كلها لتجهيز الجثة للدفن فترة تقدر بسبعين يومًا من يوم الوفاة إلى يوم الدفن، ويستغرق تجفيف الجسد أكثر من نصف هذه المدة.

لمزيد من التفاصيل: راجع: (ت. جـ. هـ. جيمز) كنوز الفراعنة، ترجمة: د. أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه، ص ص159-160، وقد حنطت جثة الظاهر بيبرس ودفنت بدمشق، راجع: السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص60.

(172) المهتار: لقب فارسي يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت (مهتار الشراب خاناه، ومهتار الركاب خاناه.....) وهي كلمة مركبة من مه أي الكبير وتار وهي لصيغة أفعل التفضيل وتعني الأكبر: راجع القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص470، وقد قيل في موضع آخر إن المهتار هو ناظر الخاص، راجع: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص176.

- William Muir, the Mameluk or Slave Dynasty, p28.

الشجاع عنبر والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين الأفرم ثم وضعوه في تابوت وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق[173] ودفن بها[174] وقد اتفقوا على موضع دفنه، ثم كتب الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار إلى ابن الظاهر بيبرس الملك السعيد كتاب (مطالعة) بيده وبعثها إلى مصر على يد بدر الدين بكتوت[175] الجوكنداري الحموي، وعلاء الدين أيدغمش[176] الحكيمي الجاشنكير، وعندما وصلا وأعطاهما المطالعة أعطى كل واحد منهما خمسين ألف درهم، على أن ذلك بشارة (بشرى) برجوع السلطان إلى مصر، ثم ركب الأمراء إلى سوق الخيل بدمشق كعادتهم ولم يظهروا شيئًا من زي الحزن[177].

وعن تجهيز الملك الصالح فقد بدأ السلطان المنصور قلاوون في تجهيز ابنه علي فغسله وكفنه وحضر الناس للصلاة عليه، فصلوا عليه عند باب الستارة[178] وكان يتقدم المصلين قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي إمامًا والسلطان خلفه وبقية الأمراء والملك الأشرف خليل[179] وعند تجهيز السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عندما مات حضر الأمراء كالعادة ولم يستطيعوا الدخول على السلطان، ثم أُرسلت

---

(173) العسقلاني: شافع بن علي الكاتب العسقلاني المصري، كتاب الفصل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، سنة 1418هـ/ سنة 1998م، ص36، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص224، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص266، سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص67.

(174) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص51.

(175) كان نائبًا للأمير بدر الدين بيلبك الخازنداري الظاهري بالشام، توفي في وقعة حمص سنة 680هـ/ 1281م، راجع: اليونيني، جـ4، ص16.

(176) أيدغمش بن عبد الله الحكيمي التركي، كان أحد أمراء الملك الظاهر وابنه السعيد، قتل في بيسان من فلسطين سنة 680هـ/ 1282م، راجع: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص176.

(177) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص641، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 176.

(178) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص358.

(179) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289.

خزائن المال وجميع ما كان مع السلطان برسم السفر إلى القلعة[180] وبعث الأمير طرنطاي لابن السلطان الأشرف خليل يخبره بأن والده توفاه الله[181] وأشار عليه ألاَّ ينزل من القلعة ووكل به مقدم المماليك[182] وبدأت مراسم الدفن تأخذ مجراها الطبيعي، فقد بدأ تجهيز السلطان لمثواه الأخير فحمله الأمير طرنطاي وهو ميت من محفه وطلع به إلى القلعة[183] بعد المغرب[184] فغسله وكفنه[185]، وبعد أن مات[186] السلطان الناصر محمد بن قلاوون والتحق بربه[187] وقد كان عمره سبعًا وخمسين سنة وأحد عشر شهرًا وخمسة أيام[188] بدأت مراسم الدفن تأخذ مجراها الطبيعي بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون[189] وغلقت الحوانيت بين القصرين، ومنعوا الناس من الوقوف والنظر إليه[190] وحمل في محفه[191] وأخرجوه من القلعة، ومروا به من وراء السور إلى باب النصر ومعه

---

(180) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص316، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص361.

(181) www.islamonline.net .

(182) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص361.

(183) العسقلاني المصري، كتاب الفصل المأثور من سيرة الملك المنصور، ص175.

(184) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص361.

(185) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276، ابن عبد الظاهر: محيي الدين عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، حققه: د. مراد كامل، راجعه: د. محمد علي النجار، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص369، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص40.

(186) ابن تغري بردي، مورد اللطافة ، جـ2 ، ص66.

William Muir, The Mameluk Or Slave Dynasty, P85

(187) الدواداري ، كنز الدرر، جـ8، ص ص307-308.

(188) المقريزي، السلوك، جـ2، ق2، ص546، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص164.

(189) محمد عبد الغني الأشقر، الملحمة المصرية عصر سلاطين المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، ط1، مكتبة مدبولي ، ص22.

(190) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص92.

(191) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص109

الأمراء بشتاك وملكتمر الحجازي وأيدغمش[192] وعدد من الأمراء الخاصكية، ثم خرجوا به من باب النصر إلى المدرسة المنصورية، وأمامه بعض الحراس تمسك بمسرجة زيت حار[193] تضيء عليه الطريق، ثم فانوس آخر فقط، ذهبوا به إلى المدرسة المنصورية، وحمل إلى القبة، وغُسل بها[194] وعهد إلى ابن أبي الظاهر الغاسل بغسله فقال لهم : "هذا ملك البسيطة وأنا لا أقدر أن أقترب منه، ولا أغسله إلا إذا قام إليه أحد منكم وجرده على الدكة، فإني أخشى أن يقال كان معه فص أو خاتم وفي رقبته خرزة تروح روح الملوك"[195] فقام من الأمراء المماليك مَنْ جرده من لباسه مع الغاسل، وغُسِّلَ[196] وَكُفِّنَ من المارستان المنصوري[197] ووضع في تابوت خشب[198] وبعد ذلك صلى عليه القضاة والفقهاء وجموع الحاضرين، ونزلوا به إلى تربة أبيه حيث دفن معه[199].

ومن السلاطين الذين جهزوا بعد تولي أبنائهم أمور السلطنة السلطان الظاهر برقوق[200] فبعد أن توفي عام 801هـ/ 1398م وهو على فراشه[201] وقبل أن يُجَهَّزَ

---

(192) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص126.

(193) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص109، علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص92.

(194) المقريزي، السلوك جـ2ن ق2، ص546، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ3، ص105، المقريزي، الخطط جـ3، ص389 مكتبة الآداب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص165.

(195) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، ص ص109-110.

(196) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(197) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9 ص165 ، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(198) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9 ص165 ، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر، ص110.

(199) المقريزي، السلوك، جـ2، ق2، ص546، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ3، ص501، المقريزي، الخطط، جـ3، ص389 مكتبة الآداب.

(200) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص119.

- William Muir, the Mamoluk or Slave Dynasty, p114-115.

(201) راسم رشدي، مصر والشراكسة صفحات من تاريخ مصر الحديث بحث وتحقيق، القاهرة سنة 1948م ، ص57.

للدفن، تولى ابنه الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر أبي سعيد برقوق بن آنص العثماني أمور السلطنة، وبعد أن ألبسه الخليفة التشريف وبعد جلوسه على سرير الملك، بدأت مراسم الدفن وتجهيز الملك الظاهر فغسلوه [202] أمام باب الزردخاناه السلطانية[203] وكفن وأخرجوه قبل صلاة الجمعة[204] وصلوا عليه بالقلعة في رحبة باب القلة[205] صلى عليه قاضي القضاة صدر الدين المناوي[206] الشافعي [207].

ومن السلاطين من وُجِدَ أن تجهيزه غريب بل عجيب جدًّا فبعد أن توفي السلطان الملك المؤيد[208] إلى رحمة الله تعالى عام (823هـ/ 1420م) بدأوا في تجهيزه للدفن وأول ما فعلوه هو تغسيل السلطان[209] والشيء الغريب في تجهيزه أنه عند غسله لم يجدوا له إناء صغيرًا ليصبوا به الماء عليه، ولا وجدوا منشفة له لينشفوا بها لحيته[210] حتى أخذوا منديل بعض من حضر غسله، ولا وجدوا له مئزرًا ليستروا به عورته، حتى أخذوا مئزر بعض

---

(202) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1 ق2، ص ص535-536، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105

(203) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، جـ2، ص495.

(204) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص495.

(205) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12،ص105، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص ص535-536، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص495.

(206) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ12،ص105 ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ1 ، ق2 ، ص536 .

(207) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص493.

(208) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، جـ1، ط1، مطبعة السعادة، مصر، سنة 1357م/ 1952م، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص138.

(209) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص109، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص308، عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ4، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص165.

(210) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص109، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص308، الدمشقي، شذرات الذهب، جـ4، ص165.

الجواري النائحات، وكان مئزرًا أسود صعيديًّا خشنًا، فسبحان من يعز ويذل[211] وبعد أن غُسل السلطان وكُفن صلوا عليه بالقلعة[212] أما عن مراسم تجهيز السلطان الأشرف برسباي، فعندما توفي السلطان الأشرف برسباي بات في القلعة ولم يخرجه الأمراء إلا في اليوم التالي، وبدأوا في تجهيزه من تغسيل وتكفين، فتولى أمر ذلك الأمير إينال الأحمدي الفقيه[213] الظاهري برقوق بوصية السلطان له وهو الذي أخرج عليه كلفة تجهيزه وخرجه من مال كان الأشرف دفعه إليه في حياته وأوصاه أن يحضر غسله وتكفينه ودفنه[214] وعندما انتهى أمر تجهيز الملك الأشرف حُمل في نعش[215] من الدور السلطانية إلى أن صلي عليه بباب القلعة من قلعة الجبل، وتقدم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر[216]، وتمثلت مراسم تجهيز الملك الأشرف أبي النصر إينال العلاي الظاهري برقوق في الغسل والتكفين ثم الصلاة عليه بباب القلعة من قلعة الجبل[217].

وعندما مات الملك الظاهر أبو سعيد خشقدم[218] (872هـ/ 1467م) وعندما أشيع خبر وفاته اضطربت القاهرة، وأسرع الأمراء بالصعود إلى القلعة وصعد الأتابكي يلباي وهو يبكي[219] وعندما اجتمع الأمراء أخذوا في تجهيز السلطان[220] فغسلوه وكفنوه[221] والملفت للنظر تجهيز السلطان من تغسيل وتكفين والصلاة عليه كل ذلك قبل أن يبايع

---

(211) الدمشقي، شذرات الذهب، جـ4، ص165، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص60.

(212) العيني، السيف المهند، ص ث، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص59.

(213) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص191، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص106.

(214) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص107

(215) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص191.

(216) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15،ص107

(217) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص157.

(218) السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، ص109، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص175.

(219) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص454.

(220) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص306.

(221) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، 454، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص306.

العساكر يلباي المذكور بالسلطنة وهو الذي حدث من تجهيز السلطان وإخراجه قبل أن يتسلطن سلطان غيره ثم يأخذوا بعد ذلك في تجهيزه.[222]

وعندما مات السلطان الأشرف قايتباي بدأ النداء عليه بالقاهرة حتى يجتمع الناس للصلاة عليه وهم يقولون : "نصلي غدًا باكر النهار على العبد الفقير إلى الله – تعالى – الأشرف قايتباي"، وبدأ الأمر في تجهيز السلطان بتغسيله وتكفينه وإخراجه فغُسل في المكان الذي مات به، وخرج بنعشه أمام الدكة التي بالحوش السلطاني فصلوا عليه هناك ونزلوا من سلم المدرج[223] .

جنازة السلاطين:

لا شك أن جميع السلاطين الذين توفاهم الله وفاة طبيعية كان لهم جنازة ، ولكن هناك من كانت جنازته غير مشهودة وبها أعداد قليلة من الناس ومنهم من كانت جنازته مشهودة ولم يكن لها مثيل ، وتفاصيل ذلك:

أولاً: من كانت جنازته غير مشهودة من السلاطين وحضرها عدد قليل من الناس فالسلطان الظاهر بيبرس كانت جنازته قاصرة على الأمراء وكبار خواصه وصلوا عليه وبعد أن حمل نعشه من القلعة إلى التربة ليلاً على أعناق الرجال[224] وضعوه وصلوا عليه، وبعد الصلاة أخذه الأمراء ودفنوه بالقبة من المدرسة التي بنيت له، وذلك بحضور

---

(222) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص306.

(223) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ3، ص334، عبد الرحمن عبد التواب، قايتباي المحمودي، ص ص87-88.

(224) كتم نعي الظاهر بيبرس عن الجمهور مدة شهر، وقد حملت محفة خالية إلى القاهرة ، وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ، لذلك لم يعتل عرش السلطنة ابنه السعيد إلا في الثلاثين من شهر يولية. راجع: السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص60 ، وقد قيل إن الظاهر بيبرس دخل مع الجيش وأعلن موته وأقيم له العزاء وحلفت الأمراء للملك السعيد ابنه، راجع: الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ5، ص307، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، جـ4، ص132.

نائب الشام، وكان قد ألحده قاضي القضاة عز الدين محمد ابن عبد القادر بن عبد الخالق ابن مقلد أبو المفاخر المعروف بابن الصائغ [225].

وقد قيل إن جنازة الناصر محمد بن قلاوون كانت جنازة مشهودة[226] وتخالف المصادر والمراجع هذا الرأي، فتصف جنازة الناصر محمد بن قلاوون بما يخالف رأي ابن إياس صاحب بدائع الزهور، الذي وصف لنا جنازة الناصر محمد وصفًا مؤثرًا وذكر ذلك أيضًا النويري، فذكر المقريزي[227] عن جنازته أنها وقعت بالليل ولم يمش وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر[228] وبذلك لم يشترك الشعب في توديع سلطانه الذي حباه بعطفه ومحبته، ولم تراعَ في تكفينه ومواراته التراب مراسم الاحترام والإجلال اللائقين بسلطان عظيم كالناصر محمد بن قلاوون الذي تمتع الشعب والبلاد في عهده بكل أنواع الطمأنينة، ومن المرجح أن هذا العمل كان من تدبير بعض الأمراء الذين كانوا يكرهون الناصر محمد لشدته عليهم وقمعه لفتنهم المستمرة التي هددت عرش سلاطين المماليك لدرجه أنها هددت عرش الناصر محمد نفسه [229].

أما النقد الشديد الذي وجه لجنازة الناصر محمد فهو الذي ذكره النويري حينما قال: "إن المعاملة السيئة لجثمان سلطان من أعظم سلاطين المماليك لم تعقد لسان الشعراء من صفوف الشعب عن تأبينه والإشادة بذكره بدليل ما ورد في كتاب الإلمام للنويري الذي ذكر فيه "نعود إلى ذكر محاسن السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، كان رحمه الله عادلاً في رعيته، محسنًا في قصبته، أبطل المظالم وكف أيدي كل ظالم" وقد قيل فيه:

فَقَدَ الْوُجودَ بَلِ الْوجودُ لِفَقْدِهِ مُتَحَسِّرٌ أَضْحى شَبيه الْحَائِرِ

---

(225) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص646.

(226) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص482.

(227) المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص304 – 305.

(228) ذكر ابن كثير أن ولي عهد السلطنة وابن السلطان الناصر محمد لم يحضر دفنه، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، مجـ7، جـ14، ص179.

(229) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ط2، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1948م، ص92.

يَبْكِي عَلَيْكَ بِأدمعٍ كَيواقِتٍ حُمْرٍ وَلُؤْلُؤُ بَعْضِها كَجَواهِرِ
زار الثَّرى فَأَصابَهُ مِنْ نورِه وَأَجابَهُ أَهْلاً بِنِعْمَ الزَّائِرِ[230]

وذكر في أحد المراجع عن جنازة الناصر محمد أنه دُفن في قبة والده من غير احتفاء إذ لم يحضر جنازته أحد من أسرته.[231]

تلك كانت جنازة الناصر محمد الذي حكم قرابة ثلاثة وأربعين عامًا وقد سطر التاريخ العديد من منجزاته سواء التاريخية أم الاقتصادية أم السياسة أم الحضارية أم المعمارية، وكان عصره من أزهى عصور دولة المماليك بشقيها البحري والجركسي، واستمر الحكم في ذريته من بعده فترة لا بأس بها، حتى استنكر معظم المؤرخين ما حدث في جنازته لدرجة أن أسرته لم يحضر أحد منهم هذه الجنازة ، والشيء الغريب في ذلك ما ذكر عن وفاة وجنازة الناصر محمد "فسبحان من لا يحول ولا يزول ، ملك البسيطة تُوفي غريبًا وغُسل طريحًا ودفن وحيدًا، عبرةً لأولي الأبصار"[232].

ومن الغريب أيضًا أن جنازة الملك المؤيد شيخ حضرها عدد قليل من الأمراء[233] وفي الجنازة أمطرت السماء عند السير بجنازته مطرًا غزيرًا حتى مشى الناس في الوحل إلى المدرسة[234] وكانت جنازة السلطان الظاهر سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي 824هـ/ 1421م قليلة العدد ولم يحضرها إلا قرابة عشرين رجلاً لشغل الناس

---

(230) النويري، كتاب الإلمام، مخطوط برلين ورقة 233 ب- 234أ، وقد أمدنا بهذه الفقرة المستشرق السويسري المسيو كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالإسكندرية.

(231) السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ص102

(232) المقريزي، الخطط، ج2، ص ص304-305، الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص110.

(233) بدر الدين العيني، السيف المهند، ص ث، العسقلاني، إنباء الغمر، جـ3، ص231 .

(234) العسقلاني، إنباء الغمر، جـ3، ص237، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص59، العيني، السيف المهند، ص ث، الدمشقي، شذرات الذهب، جـ4، ص165، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص308 .

بسلطنة ولده وساروا به حتى دفن بالقرافة من يومه بجوار الإمام الليث بن سعد - رضي الله عنه -[235].

هذا وقد كانت هناك جنازات مشهودة لبعض سلاطين المماليك مثل جنازة الملك الصالح علي بن السلطان المنصور قلاوون، فقد أقيمت له جنازة[236] وكانت جنازة كبيرة وعظيمة بل مشهودة لم يسمع بمثلها على الإطلاق، فقد مشى جميع الناس في جنازته الأمراء والقضاة وغير ذلك، وقد صلى عليه مرة أخرى قاضي القضاة معز الدين نعمان بن الحسين يوسف الخطيبي الحنفي خارج القلعة، ودفن في تربة والدته[237] خوند خاتون التي بجوار المدرسة الأشرفية بطريق السيدة نفيسة[238] ، وكانت جنازة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون جنازة مشهودة أيضًا ، فبعد أن وضعه الأمراء في تابوت نزلوا به بعد العشاء[239]

---

(235) العيني: العلامة محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر قطز، تحقيق: د/ هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية سنة 1962م، ص2، السخاوي، الضوء اللامع، جـ4، ص7، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص206، راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص66.

(236) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص744، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص358، إبراهيم ابن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوط بدار الكتب ، ص2، هذه الجنازة تذكرنا بجنازة خمارويه بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إنه حمل في تابوت إلى مصر، وكان لدخول تابوته يوم عظيم واستقبله جواريه وجواري غلمانه، ونساء قواده ونساء القطائع بالصياح وما يصنع في المآتم، وخرج الغلمان، وقد حلوا أقبيتهم، وفيهم من سود ثيابه وشققها، وكانت في البلد ضجة عظيمة وصرخة تُتعتع القلوب حتى دفن، راجع: هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، جـ2، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1994م، ص109.

(237) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289.

(238) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص744، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص358.

(239) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص369، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص40.

ومشى الأمراء وكبار رجال الدولة أمامه في جنازة عظيمة إلى أن وصلوا به إلى البيمارستان[240]. ثم صلوا عليه هناك ودفن داخل القبة تجاه مدرسة الظاهر بيبرس[241] ببين القصرين[242] من القاهرة[243]، وقد كانت جنازة السلطان الظاهر برقوق جنازة كبيرة ومهولة وقد حُمل نعشه على الأعناق[244] ومشي به من قلعة الجبل إلى التربة قبل صلاة الجمعة ومشى في جنازته جميع الأمراء[245] والعساكر والأعيان والرعايا[246] وقد دفن الظاهر برقوق بالنهار ولم يحدث هذا لأحد من ملوك مصر أن دفن بالنهار غيره[247] وانشغل الناس بمواراته وإهالة التراب عليه[248] وقد دفن السلطان الظاهر برقوق حسب وصيته تحت أقدام

---

(240) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص369.

(241) المقريزي، السلوك، جـ1، ق1، ص361، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص361.

(242) ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2 ص40، العباس الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ص165، الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ5، ص363، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص276، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ3، ص499.

(243) المعروف أن القبة المنصورية كانت تجاه المدرسة المنصورية ، وهما جميعًا من داخل باب المارستان المنصوري، وبها قبر الملك المنصور قلاوون وابنه الملك الناصر محمد والملك الصالح عماد الدين إسماعيل محمد بن قلاوون، راجع: المقريزي، الخطط، جـ2، ص379، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، هامش(5)، ص40.

(244) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105.

(245) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ2، ص496، العسقلاني، أنباء الغمر، جـ2، ص52.

(246) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص ص536-537.

(247) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص496، العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص494.

(248) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، جـ2، ص496.

الفقراء[249] وفي لحد كما أوصى أيضًا ولم يدفن في الفساقي[250]، وقد كانت جنازة السلطان الأشرف برسباي هي الأخرى جنازة كبيرة ومشهودة، فقد حمل على أعناق الخاصكية وصغار الأمراء، ثم ذهب إلى القبر في جنازة يحضرها كبار رجال الدولة والأمراء، ودفن بتربته التي أنشأها خارج القاهرة[251] في الصحراء، وكانت جنازته جنازة مشهودة وكبيرة، ولم يحدث في يوم موته اضطراب ولا فتنة ودفن قبيل المغرب[252]، بالإضافة إلى أن جنازة السلطان الظاهر جقمق جنازة كبيرة وعظيمة أيضًا فبعد أن حُمل نعشه[253] بدأت الجنازة التي كان يتقدمها أمام النعش ابنه السلطان الملك المنصور عثمان، بالإضافة إلى الأمراء والقضاة وجميع أعيان المملكة، وكانوا يمشون بسكون ووقار إلى أن صُلِّي عليه[254] بمصلاةٍ بباب القلة من قلعة الجبل[255] وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله

---

(249) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105.

(250) منع النبي (ﷺ) الدفن في الفسقية لأن هذا مخالف للسنة المطهرة من حيث ترك الدفن فالذي في الفسقية كمن في بيت مغلق عليه، ومثل هذا لا يطلق عليه أنه مدفون، فقد تركوا الدفن وهو شعيرة من شعائر المسلمين، ونعمة امتن الله تعالى بها علينا .

راجع: ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، جـ3، ص268، ولمزيد من التفاصيل راجع: ص268 إلى ص272.

(251) ابن تغري بردي ، مورد اللطافة ، جـ2 ، ص154 ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، جـ15، ص107.

(252) ابن إياس ، بدائع الزهور، جـ2، ص191، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص107، ابن تغري بردي، مورد اللطافة، جـ2، ص154.

(353) ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش(5) ص ص3-4.

(254) العيني، عقد الجمان، جـ1، ص9، السخاوي، الضوء اللامع، جـ3، ص74، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص453.

(255) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، جـ2، حررها وليام بير سنة 1930م، ص349. =

أبو البقاء حمزة[256] وخلفه السلطان والقضاة وجميع الأمراء والعساكر ثم حمل بعد انقضاء الصلاة عليه وأنزلوه من القلعة[257]، حتى دفنوه بتربة أخيه الأمير جاركس القاسمي المصارع التي جددها مملوكه قاني بك الجركسي بالقرب من دار الضيافة[258] تجاه سور القلعة، وكانت جنازته كبيرة وكان يومه يومًا مشهودًا وعظيمًا وقيل إنه لم تر جنازة لملك كجنازته[259]، وجلس الناس في الطرقات لمشاهدة جنازته الكبيرة العظيمة[260].

وقد كانت جنازة السلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلاي الظاهري برقوق كبيرة ومشهودة، فبعد أن صلوا عليه بباب القلة من قلعة الجبل[261] ونزلوا به من سلم المدرج جلس الناس لرؤيته وأقيمت له جنازة كبيرة، ودُفن في التربة التي أنشأها الجمالي يوسف ناظر الخاص في الصحراء[262] خارج القاهرة[263].

أما السلطان الظاهر أبو سعيد خشقدم فعندما صلوا عليه بباب القلة وحُمل نعشه كان على نعشه مرقعة الفقراء، فساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج ولم يكن معه جمع كبير من الناس بل إن جميع من كان معه أمام نعشه وحوله وخلفه من الأمراء والخاصكية كانوا دون العشرين نفرًا وكان معظمهم من الأجناد فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما

(256) ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش(2) ص2، ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ2، ص349.

(257) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص454.

(258) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3،ص73، ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش(5)، ص3، يمكن أن نبرر أمر دفن الظاهر جقمق في تربة قاني باي الجركسي بأنه أراد أن يدفن إلى جوار أخيه جاركس القاسمي، راجع: ابن إياس، الأيام الأخيرة، هامش(5)، ص ص3-4.

(259) السخاوي، الضوء اللامع، جـ3،ص74.

(260) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص454.

(261) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص157.

(262) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص367.

(263) ابن تغري بردي، منتخبات من حوادث الدهور، جـ3، ص558.

هي العادة ولا أحد من المباشرين، المهم أن عوام الناس اجتمعوا حول نعشه إلى أن أوصلوه إلى تربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من باب النصر ودُفن بها[264].

وكانت جنازة الملك الأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي جنازة كبيرة وبها أعداد كبيرة من البشر ، ومشى في الجنازة أمام نعش السلطان الأمراء والعسكر وتوجهوا به إلى تربته التي بناها في الصحراء شرقي القاهرة[265].

مظاهر الحزن

حزن الناس حزنًا شديدًا على معظم سلاطين المماليك الذين ماتوا ، فمن السلاطين الذين حزن الناس عليهم حزنًا بالغًا السلطان الظاهر بيبرس، والملك الصالح علي، فقد حدث للملك المنصور قلاوون من الألم ما لا مزيد عليه[266] ، هذا وقد ذكر ابن إياس أنه عندما مات الملك الصالح علي بن الملك المنصور قلاوون حزن عليه والده السلطان حزنًا شديدًا[267] ويستمر ابن إياس في الوصف ذاكرًا حال السلطان المنصور قلاوون عندما دخل عليه الأمراء فيقول : "وكان الأمراء جلوسًا على باب الستارة ينتظرون ما يكون من أمره، فلما وقع الصراخ في دور الحرم، دخل الأمير طرنطاي نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف الرأس وشاشة على الأرض وهو يبكي ويصيح فلما رآه الأمير طرنطاي على هذه الحالة فألقى الآخر شاشة عن رأسه، ثم إن بقية الأمراء دخلوا على السلطان، ورموا كلوتاتهم عن رؤوسهم، فأقاموا على ذلك ساعة"[268]، هذا يدل على أن السلطان قلاوون أظهر لموت ابنه جزعًا بالغًا وحزنًا شديدًا[269] وتضمنت مظاهر الحزن الصراخ والعويل

---

(264) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص454.

(265) عبد الرحمن عبد التواب، قايتباي المحمودي، ص ص87-88، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ3، ص334.

(266) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289.

(267) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289، المقريزي ، السلوك، جـ1، ق3، ص744.

(268) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص358.

(269) علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص57.

والنحيب على السلطان بالإضافة إلى البكاء الشديد الذي بكاه السلطان على ابنه الملك الصالح، هذا إلى جانب مشاركة الأمراء للسلطان في أحزانه عندما دخلوا وهو يبكي ابنه الصالح عليًّا وحزن الناس على الناصر محمد بن قلاوون بشدة أيضا [270].

وعندما مات السلطان الصالح إسماعيل حزنت الناس عليه أشد الحزن وتأسفت عليه غاية الأسف[271] ودارت الجواري بالملاهي يضربن بالدفوف والمخدرات حواسر يبكين ويلطمن[272] وزاد حزن الناس عليه ووجدوا عليه وجدًا عظيمًا[273] ، وقد كان الصراخ والعويل من مظاهر الحزن على وفاة السلطان الظاهر برقوق فكان الرعايا يبكون ويصرخون ويضجون[274] وقد امتلأت طرق الصحراء بالجواري والنساء الثيبات الحاسرات منشرات الشعور من حرم مماليكه وحواشيه وهم يصرخون

(270) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص482.

(271) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص ص504-454.

(272) كان للنساء بعض العوائد القبيحة المكروهة في الموت مثل الندب والنياحة وزيارة القبور، فكان المحتسب يمنعهن من فعل ذلك لأنه لا يجوز في الإسلام، ومن خالفت هذه الأوامر عوقبت، ففي عام 910هـ/ 1504م أمر السلطان الغوري بألا يقام عزاء بندابات وعهد إلى المحتسب بتنفيذ ذلك فقبض على نائحة أقامت عزاء بطارات وشهر بها على حمار والطار معلق في عنقها ووجهها ملطخ بالسواد، راجع: سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1986م،ص151. هذا وقد قيل إنه إذا سمع المحتسب وهو يتفقد المآتم والمقابر نادبة أو نائحة عزَّرها ومنعها ، قال (ﷺ) : "النائحة ومن حولها في النار"، ومنع المحتسب النساء من زيارة القبور لقول النبي (ﷺ) : "لعن الله زوارات القبور" ومنعهن من كشف وجوههن ورؤوسهن خلف الميت، ومنعهن من تشييع الجنازة. راجع: الشيرزي: عبد الرحمن بن نصر الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشرة: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة1365هـ/ 1946م، ص110.

(273) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص98.

(274) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص ص536-537.

ويبكون[275] بشدة فقد كان هذا اليوم عبرة لمن اعتبر، وقد حزن الناس أيضًا على السلطان جقمق حزنًا شديدًا[276] إلى جانب حزنهم أيضًا على وفاة الناصر إينال العلاوي الظاهري برقوق الناصري فرج وازداد الحزن والأسف والبكاء على السلطان[277] وقد حزن الناس أيضًا لفقد السلطان قايتباي المحمودي[278].

أما عن السلاطين الذين حزن الناس عليهم بعد موتهم بمدة فالسلطان خشقدم لم يحزن الناس عليه يوم موته، ولكن حزنوا عليه بعد ذلك حزنًا شديدًا لما تسلطن بعده الأتابك يلباي ، بل إن الناس أحسوا بفقده بعد أن تسلطن يلباي[279].

مراسم عزاء السلاطين:

لا شك أن مراسم العزاء كانت واحدة في عصر معظم سلاطين المماليك ، وقد أسهب المؤرخون في وصفها إسهابًا بالغًا ، إلا بعض السلاطين الذين لم يذكر المؤرخون عن مراسم عزائهم إلا القليل.

ومن السلاطين الذين أسهب المؤرخون في وصف مراسم عزائهم السلطان الظاهر بيبرس على اعتبار أن بيبرس يعتبر أسطورة عصر سلاطين المماليك بما فعله من أعمال شهد بها هذا العصر.

---

(275) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق2، ص ص536-537، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص496، ذكر ابن الحاج قائلاً: فليحذر من نشر الشعور للنساء والدعاء بالويل والثبور وهو دعوى الجاهلية، وما يفعله بعض النساء من خرق قعور القدور السود وجعلها في حلوقهم وسكب التراب على الرؤوس وتلطيخ البيوت بالسواد، راجع: ابن الحاج والمدخل إلى الشرع الشريف، جـ3، ص233.

(276) العيني، عقد الجمان، جـ1، ص9، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص303.

(277) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ2، ص367.

(278) راسم رشدي، مصر والشراكسة، ص86.

(279) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16،ص307.

وتمثلت مراسم عزاء الظاهر بيبرس بعد دفنه بأن بدئ في إقامة عزائه في مصر والشام[280] وجلس القراء لقراءة القرآن من ثاني يوم[281] وعندما انتهت سنة (676هـ/ 1227م)، اهتم الصاحب بهاء الدين بعزاء السلطان الملك الظاهر وذلك على حسب ما جرت به العادة من سُنة الملوك من القيام في أعزيتهم بما ينفع الغني والفقير[282].

فقد تمثلت مراسم عزاء الظاهر بيبرس في مد الأسمطة في الخيام للقراء الذين يقرأون القرآن وللفقهاء أيضًا[283] وتقرر أن يكون عزاء السلطان أحد عشر يومًا في أحد عشر موضعًا، نصبت فيها الخيمة العظمى السلطانية، وفرشت بالبسط الجليلة وصنعت بها الأطعمة[284] والأشربة الشهية، واجتمع على الموائد جميع العوام والخواص، وأخذوا منها ووزعوا على الربط والزوايا، وقد كانت كل ليلة من ليالي العزاء يحضرها الأمراء والقضاة والشهود والفقهاء والصوفية[285] إلى جانب حضور القراء والوعاظ[286] أما عن المواضع (الأماكن) التي أقيم فيها العزاء فمكان يعرف بالبقعة[287] المعروفة بالنقعة بجوار مسجد يعرف بالأندلس، والثاني بالحوش السلطاني الملكي الظاهري ، والثالث بالمدرسة المجاورة

---

(280) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص641، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص177.

(281) المقريزي، السلوك،ج1 ، ق2، ص647.

(282) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص230.

(283) المقريزي، السلوك جـ1، ق2، ص ص648-649.

(284) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص266.

(285) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص230.

(286) كان القرآن الكريم يُقرأ، وكذلك بعض المواعظ لأهل الميت سواء في المنزل أو عند المقابر، ترحمًا على المتوفى ولبعث الصبر في نفوس أهل الميت حتى يخفف عنهم وقع مصيبة الموت التي نزلت بهم فكان من التعاليم المرعية، راجع: ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة سنة 1995م، ص27، سعيد سيد أحمد، عادات المسلمين الأندلسيين عند الموت، ص56.

(287) في هذا المكان مسجد بناه الأمير أبو منصور صافي الأفضل، يعرف بمسجد البقعة، راجع: المقريزي، الخطط، جـ2، ص447، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص231.

لقبة الشافعي رضي الله عنه ، والرابع بجامع مصر، و الخامس بجامع ابن طولون، والسادس بالجامع الظاهري بظاهر القاهرة بدار الحديث الكاملية، والعاشر بالخانقاة (برحبة العيد) والحادي عشر بالجامع الأنور الحاكمي[288] وعمل التكاررة[289] وقد أقيم للفقراء خوان حضره كثير من أهل الخير.[290]

وتمثلت مراسم عزاء الملك الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون في نزول السلطان في اليوم التالي لزيارة قبر ولده، وجلوسه هناك، وحضر جميع القراء، وقد استمر العزاء والمأتم سبعة أيام مستمرة[291] وقد أخذ السلطان عزاء ابنه وأرسلت كتب العزاء إلى جميع النواب بالممالك ورسم فيها بألا يقطع أحد شعرًا ولا يلبس ثوب حداد ولا يغير زيه[292]، معنى هذا أنه عندما كان يموت الميت كان أهله يلبسون ملابس الحداد عليه وذلك بتغيير زيهم المعتاد لبسه، ولولا كتاب السلطان إلى جميع الممالك بتلك الوصية للبسوا ملابس الحداد وغيروا زيهم الأصلي.

وعلى الرغم مما فعله الناصر محمد بن قلاوون وسطر التاريخ أعماله ومنجزاته الرائعة إلا أن المصادر والمراجع لم تذكر عن مراسم عزائه إلا القليل ، كل ما ذكرته المصادر أنه في ثاني ليلة دُفن فيها السلطان الناصر محمد ختمت له ختمة في المدرسة وكان بها بعض الأمراء[293] ودامت قراءة القرآن على قبره أيامًا[294] ولم نجد مد أسمطة أو تلقي

---

(288)ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص231.

(289) التكاررة: هم أهل بلاد التكرور، وهي أحد الأقاليم الإفريقية الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر وقاعدتها مدينة تكرور، وأهلها أشبه بالزنوج. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص861، القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص ص286-287.

(290) المقريزي، السلوك، جـ1، ق2، ص ص648-649.

(291) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ1، ق1، ص358.

(292) المقريزي، السلوك، جـ1، ق3، ص 744، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص289.

(293) الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، ص110.

(294) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص165.

العزاء في الخيام كما حدث في عزاء الظاهر بيبرس، والظاهر برقوق، فعندما مات الظاهر برقوق بدأ النداء في القاهرة ومصر بأن يترحم الناس على الملك الظاهر برقوق وأن يدعو الناس للملك الناصر ولي عهده وبدأ تطمين الناس وأمنهم، وضربت خيمة مدورة على قبره و قرئ القرآن على قبره ثماني ليال متوالية[295] ومُدت لهم الأسمطة العامة الفخمة والعظيمة، وقد تردد عليه أكابر الدول في كل ليلة إلى قبره لزيارته[296].

ومن المرجح أن جميع سلاطين المماليك أقيم لهم عزاء ومدت لهم أسمطة وقرئ عليهم القرآن في خيام مثل السلطان الأشرف برسباي، والظاهر جقمق ، والظاهر أبي النصر سيف الدين العلاي الظاهري برقوق الناصري فرج، والظاهر سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي، والدليل على أن هؤلاء السلاطين أقيم لهم عزاء مشهود هو جنازتهم التي كانت مشهودة وحضرها جميع الناس من كبار رجال الدولة إلى صغارها بالإضافة إلى أن حزن الناس على هؤلاء السلاطين وأساهم عليهم وبكاءهم ونواحهم يعطي انطباعًا عن أن عزاءهم كان مشهودًا، باستثناء بعض السلاطين الذين نرجح أيضًا أنهم لم يقم لهم مراسم عزاء مثل السلطان المؤيد شيخ الذي كانت جنازته غير مشهودة بدليل أن مشى بها عدد قليل من الأمراء، هذا إلى جانب السلطان سيف الدين أبي سعيد ططر الظاهري الجركسي (824هـ/ 1421م) الذي يرجح أن مشى بها عدد قليل من الرجال بدليل أنه عندما غُسل وكُفن لم يخرج معه إلا عشرون رجلاً ، فمن المحتمل أن يكون هم الذين مشوا في جنازته ، والسلطان الملك الظاهر أبي سعيد خشقدم الذي لم يمشِ في جنازته إلا الأمراء والخاصكية دون العشرين نفرًا وكان معظمهم من الأجناد.

النتائج التي أسفرت عنها الدراسة:

- قتل عدد كبير من سلاطين المماليك ومعظمهم عومل معاملة قاسية عند القتل ، فكان السلطان يُترك بدون تغسيل أو تكفين بعد مرور أكثر من ثلاثة أيام مثل السلطان قطز

(295) العيني، السلطان برقوق، تحقيق: إيمان شكري، ص494، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص105.

(296) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12،ص105، العسقلاني، إنباء الغمر، جـ2، ص52.

الذي ظل مُلْقًى بالعراء فترة طويلة، والسلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي قُتل وظل مُلْقًى في العراء لمدة يومين دون أن يُغسله أحد أو يُكفنه أو يدفنه، وقتل الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري الذي رموه على المزبلة بمنتهى الإهانة ، ومن المرجح أنهم لم يقم لهم عزاء أو مراسم للدفن والعزاء وذلك لأن المصادر والمراجع لم تذكر شيئًا عن مراسم العزاء، وكل ما ذكر هو مراسم الدفن فقط من تغسيل وتكفين ودفن ولكن بعد مرور فترة ليست بالقليلة ، إلى جانب الناصر أحمد بن الناصر محمد الذي قُتل بالكرك وترك مقتولاً لفترة وعندما وجدوه وأُشيع خبر وفاته بدأوا في تجهيزه للدفن .

- الشيء الواضح والمُلفت للنظر هو قتل الأخ لأخيه عندما أمر المظفر حاجي بقتل أخيه الملك الكامل زين الدين شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

- قتل الملك ودفنه دون تغسيل أو تكفين مثلما حدث مع السلطان المظفر حاجي عندما قتله الأمير بيبغاروس وتوجه به إلى تربة عند باب المحروق ودفنه دون أن يشعر به أحد بدون تغسيله أو حتى تكفينه فإنه مات ميتة بشعة ودفن دفنة بشعة أيضًا.

- لم يُغسل أو يُكفن أيضًا السلطان الناصر حسن فقد قبض عليه يلبغا وخنقه وقتله، وتعددت الآراء فهناك من ذكر أن جثته رميت في البحر، وقيل إن يليغا عاقبه عقابًا شديدًا ودفنه في مصطبته دون أن تراعَى له حرمة أو مكانة في أنه كان سلطانًا أو أن إكرام الميت تجهيزه من تغسيل وتكفين ودفن ، ولكن للأسف لم يحدث هذا مع معظم سلاطين المماليك الذين قتلوا وعوقبوا أشد عقوبة حتى القتل.

- الشيء الغريب أيضًا قتل السلطان الأشرف زين الدين أبي المعالي شعبان بن حسين، قيل إنه قتل ببشاعة فبعد أن قتل وضع في قفة ورمي في بئر لمدة كبيرة حتى إن رائحته قد ظهرت ، أليس هذا منتهى الإهانة لأحد سلاطين المماليك الذين سطر التاريخ ذكراهم، ولم يُجهز مثل باقي البشر (العوام من الناس) فلم يُغسل ويُكفن ولم تقم له مراسم للعزاء، إلى جانب ما حدث للناصر فرج بن برقوق الذي قتل ورمي فوق المزبلة ولم نسمع له عن

مراسم للدفن ولا للعزاء ، إلى جانب السلطان قنصوة الغوري الذي قُتل ولم يعرف له جثة ولا رأس إلى الآن وكأنما ابتلعت الأرض جثته، والسلطان الأشرف أبي النصر طومان باي الذي شنق أمام جمع غفير من البشر وظل معلقًا على باب زويلة ثلاثة أيام حتى فاحت رائحته.

- من الملاحظ في طريقة قتل الأمراء المماليك لسلاطينهم وقسوتهم الوحشية التي قتلوا بها وتركهم في العراء ، أنها لم تأت من فراغ ولكن تأثر فيها المماليك بالمغول الذين جاءوا إلى مصر وانتشرت عاداتهم وتقاليدهم فقد تفننوا في وسائل القتل والتعذيب، فتاريخهم حافل بحوادث الفزع والرعب والدسائس والمؤامرات والخسة والدناءة ، كل هذا حمله المغول معهم من بلادهم ونقلوه إلى المجتمع المصري وتأثر به الأمراء المماليك، فالذبح وقصف الظهر نصفين ووسائل القتل الأخرى تأثر فيها المماليك بالمغول.

- إن ما حدث هو عدم مراعاة حرمة سلاطين المماليك حتى لو أن سلاطين المماليك قد أساءوا التصرف مع أمرائهم أو رعيتهم، ونحن نعلم أن إكرام الميت دفنه فكان من الأفضل بعد قتل سلاطين المماليك ستر أجسادهم ومواراتهم وما يتطلب ذلك من تجهيز الميت لتغسيله وتكفينه فلم تُراع لهم حرمة أو أن بعضهم كان في يوم ما سلطانًا ابن سلطان كان قد أحسن إلى رعيته، وكان يجب مراعاة السلطنة وناموس الملك ، والملوك لهم غيرة على الملوك ولو كان بينهم العداوة والخصومة، وعلى الجانب الآخر نجد أن هناك من السلاطين من قتل ومات وأقيمت له مراسم للدفن والعزاء كالسلطان ابن السلطان الذي حفظت له حرمته وهيبته وعُومل معاملة السلاطين وهو السلطان الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس، فهو من السلاطين الذين قتلوا وروعيت حرمته كسلطان ابن سلطان.

- أما عن السلاطين الذين ماتوا ميتة طبيعية فقد كان السلطان يصيبه المرض ثم عندما يحس بدنو أجله يبعث ليحضر الأمراء والقضاة والخليفة ليولي العهد إلى ابنه الكبير ، ثم يحلفون على تلك الوصية وبعد ذلك يتوقف السلطان ، وقبل أن يجهز للدفن كانت تتم مراسم تتويج ولي العهد للسلطنة باستثناء ما حدث مع السلطان خشقدم الذي لم تكن

له وصية قبل وفاته، والسلطان الأشرف أبي النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري الذي لم يرد على الأمراء عندما طلبوا منه أن يعهد بولاية العهد لابنه ، وتوفي دون أن يوصي لأحد بوصية أو يعهد بالحكم إلى أحد أبنائه.

- معظم سلاطين المماليك ماتوا بمرض البطن أو الإسهال الدموي مثل السلطان الظاهر بيبرس، والسلطان الصالح علي بن المنصور سيف الدين قلاوون الذي مرض بالإسهال الدموي بعد حضوره للسماط (المائدة)، أيضًا الناصر محمد بن قلاوون، والسلطان الظاهر برقوق الذي مرض بعد أن تناول أطعمة مختلفة وخلط في الطعام وأُصيب بمرض الحُمى، والسلطان المؤيد شيخ عبد الله المحمودي، الذي اشتد عليه مرض الإسهال المفرط، والأشرف برسباي الذي مات بمرض القولنج، فمن المرجح أنه مع كثرة وجود الطعام مختلف الأشكال والألوان وتناولهم الطعام باردًا ثم ساخنًا ثم حلوًا ثم مالحًا، فطعامهم هذا هو أساس مرضهم بمرض البطن والإسهال الدموي، كالذي حدث أيضًا للسلطان أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي، والأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي الظاهري.
- هناك من السلاطين من مات بمرض الخوف وشدة الرعب مثل السلطان الصالح إسماعيل (سنة 746هـ/ 1345م).
- من السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، والملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي.
- عندما كانت تخرج الجنازة كان يتقدمها الخليفة وكبار الأمراء وولي العهد الجديد السلطان ابن السلطان المتوفى وتستمر الجنازة في سيرها إلى أن تصل إلى موضع الدفن.
- من العادات المتبعة بعد دفن الملوك أن يُحضروا المقرئين لتلاوة القرآن على القبر وذلك لمدة سبع ليال أو أكثر قد تصل إلى الشهر، ومن العادات المتبعة للملوك بعد الدفن مد الأسمطة للأغنياء والفقراء وتفريق الأطعمة على أهل الزوايا وجموع الناس المحتشدة إلى جانب إضاءة وإشعال الشموع.

- من الملوك والسلاطين الذين لم يقم لهم عزاء أو جنازة كما يجب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، حيث إن جنازته لم يسر وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر، ولم يشترك الشعب في توديع سلطان عظيم كهذا .

- اتفقت وصايا السلاطين قبل وفاتهم على تولية أحد أبنائهم لولاية العهد ولكن هناك من كان يوصي بدفنه في أحد الأماكن مثل السلطان الظاهر بيبرس الذي أوصى أن يدفن بالطريق السالكة بدمشق، وأوصى ابنه أيضًا أن ينتبه إلى أمرائه ويتحاشى غدرهم، وهذه اختلفت عن وصية السلطان الظاهر برقوق الذي أوصى أن يدفن تحت أرجل الفقراء والصالحين وأن يدفن دفن السُّنة في اللحد بخلاف الدفن في الفساقي، وأوصى بالمال إلى زوجاته.

- من السلاطين من مات دون أن تكون له وصية مثل المنصور سيف الدين قلاوون والملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي.

- اختلفت مراسم الدفن وتجهيز السلاطين المماليك ، ولكن الشيء الملاحظ واللافت للانتباه هو تحنيط جثة السلطان الظاهر بيبرس، ومن المحتمل أن تكون جثة الظاهر بيبرس قد حُنطت لأنه يعتبر بحق أسطورة سطر التاريخ أحداثها، فبيبرس يعد من أعظم سلاطين المماليك ؛ إذ اجتمع فيه من الصفات ما يجعله يحوز إعجاب المؤرخين جميعًا في الشرق والغرب، وأحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والتبجيل.

- جميع سلاطين المماليك دفنوا في الفساقي إلا السلطان الظاهر برقوق دُفن في لحد على طريقة السُّنة وليس في الفساقي.

- اختلفت جنازة السلاطين المماليك من سلطان لآخر فقد كانت هناك جنازة مشهودة وجنازة غير مشهودة أو كبيرة، فالجنازات المشهودة والكبيرة لسلاطين المماليك مثل جنازة الملك الصالح علي ابن السلطان المنصور قلاوون، وجنازة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، والسلطان الظاهر برقوق، والسلطان الأشرف برسباي،

والظاهر جقمق والأشرف أبي النصر قايتباي المحمودي ، أما عن جنازة السلاطين غير المشهودة فجنازة السلطان الظاهر بيبرس القاصرة على الأمراء ، وجنازة الناصر محمد ابن قلاوون، وجنازة الملك المؤيد شيخ، والسلطان الظاهر سيف الدين أبي ططر الظاهري الجركسي.

- كانت ملابس الحداد في تلك الفترة هي لبس السواد، ولكن نجد أن السلطان المنصور قلاوون قد لبس البياض على الملك السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس عندما كان جالسًا يتلقى العزاء، ولا نعلم إن كان لبس البياض للرجال وأن لبس السواد كان للسيدات ، أو أنه كان سلطانًا لذا فقد كان يلبس البياض.

- من مظاهر الحزن عند الوفاة لبس السواد، وتلطيخ الأجسام بالسخام والطين، إلى جانب الطواف في الشوارع الذي كان يقوم به النادبات والنواحات والصياح على الميت وشق الأثواب كما حدث في جنازة السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي، ففي مأتمه خرجت النادبات اللاتي يضربن بالطارات والدفوف وأقيمت المغاني بالنواح، كما كُنَّ يلطمن وجوههن ، وجرت العادة أنه في اللحظة التي يخرج فيها نعش الميت لتشييع جنازته يصيح الرجال والنساء معًا صيحة واحدة عالية يعتبرونها وداعًا للميت ، كما كانت العادة لطم الخدود مع الصياح، وهناك جماعات عرفوا في ذلك العصر وأطلق عليهم الفقراء الذاكرون يحضرهم أهل الميت ليذكروا أمام الجنازة وينوحوا ويبكوا .....إلخ.تمثلت مراسم عزاء السلاطين في قراءة القرآن ومد الأسمطة للأغنياء والفقراء في الخيام التي كانوا يتلقون فيها العزاء لمعظم سلاطين العصر المملوكي.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي وردت في البحث :

أولاً: المصادر العربية:

1 - إبراهيم بن يوسف البولوي، رسالة في أحكام الجنائز، مخطوط بدار الكتب القومية، تحت رقم 1172، فقه حنفي، ميكروفيلم 38286.

2 - ابن أبي الفضائل (مفضل)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .

3 - ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة 1976م.

4 - ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، سنة 1992م.

5 - ابن الجيعان: يحيى بن شاكر بن الجيعان، كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، تحقيق: برنهارد مورتيس، القاهرة سنة 1898م، المطبعة الأهلية سنة 1992م

6 - ابن الحاج: الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، دار الفكر للطباعة والنشر.

7 - ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، حققه : د. قسطنطين رزيق، د. نجلا عز الدين، الجامعة الأمريكية في بيروت، المجلد الثامن، سنة 1939م.

8 - ابن الوردي: زيد الدين عمر، تاريخ ابن الوردي ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، سنة 1389هـ/ 1969م.

9 - ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب المقدمة: محمد مصطفى، جـ1، ق1، طـ2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة بولاق سنة 1311هـ.

10 - ابن إياس: الأيام الأخيرة من حكم السلطان الملك الظاهر محمد أبي سعيد جقمق ، سنة 1951م.

11 - ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، حررها : وليام بير سنة 1930م.

12 - ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، القاهرة دار الكتب المصرية سنة 1956، وهناك تحقيق آخر: د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، سنة 1993م.

13 - ابن تيمية، مجموع من الفتاوى الكبرى، مرتبا على الأبواب الفقهية ومخرج الأحاديث على مسند الإمام أحمد، إعداد: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر سنة 1993م.

14 - ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، حققه ووضع حواشيه، د. محمد محمد أمين، راجعه وقدم له د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب سنة 1976م.

15 - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة سنة 1966م.

16 - ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعرف بابن سيده المرسي ، المخصص ، ط1، بولاق سنة 1900م.

17 - ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء/ أحمد حطيط، فرانز شتاينر بقيسبادن سنة 1403هـ/ 1983م.

18 - ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، سنة 1396هـ/ سنة 1976م.

19 - ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: د.مراد كامل، القاهرة سنة 1961م.

20 - ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة سنة 1995م.

21 - ابن كثير: الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة 1358هـ .

22 - ابن مفتاح: أبو الحسن بن عبد الله، شرح الأزهار، القاهرة سنة 1938م.

23 - ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار صادر، بيروت سنة 1985م.

24 - ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، خمسة أجزاء، مطبعة جامعة فؤاد الأول سنة 1953م .

25 - أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط1 بالمطبعة الحسنية المصرية سنة 1325م .

26 - أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسين بن حمزة الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

27 - أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: د. محمد بن المعيد خان، ط2، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد - الهند، سنة 1972م.

28 - البخاري، صحيح البخاري، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط3، سنة 1416هـ/ 1996م.

29 - الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

30 - الدمشقي: عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.

31 - الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري ، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة سنة 1972م.

32 - الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط2 مصورة، مطبعة حكومة الكويت سنة 1948م.

33 - الزهري: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الذهبي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ط1، دار صادر، بيروت .

34 - السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، 12جزءًا ، القاهرة ، 1353-1355هـ/ 1934-1936م.

35 - السيوطي: الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، نظم العقبان في أعيان الأعيان، حرره: د. فيليب حتى، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك سنة 1927م.

36 - السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السعادة، مصر سنة 1357هـ/ 1952م.

37 - السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان السيوطي، (ت97هـ)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، مجـ2، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

38 - الشيزري: عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشرة: السيد الباز العريني، إشراف: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1365هـ/ 1946م.

39 - الصفدي: الحسن بن أبي محمد عبد الله الهاشمي العباسي، نزهة المالك والمملوك في مختصر من ولي مصر من الملوك، مخطوطة المتحف البريطاني رقم 23662، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، طـ1، سنة 1434هـ/ سنة 2003م.

40 - الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب ، القاهرة سنة 1970م.

41 - العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ط1 ، دار الجبل ، بيروت سنة 1992م.

42 - العماد الحنبلي: المؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدس ، القاهرة سنة 1350هـ .

43 - العيني: العلامة محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق: د. هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية سنة 1962م.

44 - العيني: بدر الدين العيني، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: إيمان شكري، طـ1، القاهرة سنة 2002م.

45 - العيني : بدر الدين العيني ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، حققه وقدم له : فهيم محمد شلتوت، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة ، دار الكتاب للطباعة والنشر، القاهرة سنة 1966- سنة 1967م.

46 - العيني: بدر الدين محمود العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه: د. محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة سنة 1990م.

47 - القلقشندي: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق: د. يوسف علي طويل، جـ3، طـ1، دار الفكر، دمشق سنة 1987م.

48 - المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة 1968م.

49 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، دار الطباعة المصرية ببولاق القاهرة العربية سنة 1270هـ، وهناك طبعة أخرى 4 أجزاء، مكتبة الأدب.

50 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، جـ1، ق2، مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة 1943م، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1914م.

51 - النويري : كتاب الإلمام، مخطوط برلين عن المستشرق السويسري المسيو كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالإسكندرية.

52 - اليافعي: الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن سليمان اليافعي اليمني المكي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.

53 - اليونيني: الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مجـ2، طـ1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية- بحيدر أباد الدكن، الهند سنة 1375هـ/ سنة 1995م .

54 - ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1355هـ/ سنة 1936م .

55 - بيبرس المنصوري، كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية القاهرة سنة 1987م.

56 - شمس الدين الشجاعي، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، حققته وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر، النص العربي، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر- فيسبادن سنة 1978م .

57 - كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ط1، سنة 1988م.

58 - محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة ، بيروت ، د. ت.

59 - يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام: (245-298)هـ الأحكام في الحلال والحرام، جمعه : علي بن أحمد بن أبي حريصة ، ط3 ، منشورات مكتبة التراث الإسلامي ، سنة 2003م.

ثانيًا: المراجع العربية:

1 - أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة القاهرة سنة 1988.

2 - السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، ط1، القاهرة سنة 1995م.

3 - برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية الأستاذ: خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له: د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر.

4 - ت.ج.هـ.جيمز، كنوز الفراعنة، ترجمة: د/ أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماهر طه.

5 - حكيم أمين عبد السيد، قيام دوله المماليك الثانية، تقديم: د. محمد مصطفى زيادة، الدار اليومية للطباعة والنشر القاهرة سنة 1996م.

6 - راسم رشدي: مصر والشراكسة صفحات من تاريخ مصر الحديث بحث وتحقيق، القاهرة سنة 1948م.

7 - سعيد سيد أحمد أبو زيد، عادات المسلمين الأندلسيين، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الرابع، مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة سنة 2004، 2005م، ص51.

8 - سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ط1، دار النهضة العربية القاهرة سنة 1965م.

9 - سهام مصطفى أبو زيد: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة 1986م.

10 - صلاح الدين محمد نوار، الطوائف المغولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية، منشأة المعارف بالإسكندرية.

11 - عبد الحميد صالح حمدان، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى عام 702هـ) تأليف:بيبرس المنصوري، الدار المصرية اللبنانية.

12 - عبد الرحمن محمود عبد التواب، قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة. سنة 1978.

13 - عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ط3، الرياض سنة 1410هـ/ سنة 1989م.

14 - عبد القادر أحمد عبد القادر: إسبال الكساء على عورات النساء، دار الوثائق للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق سنة 2006م.

15 - علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ط3 ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة 1967م.

16 - فؤاد عبد المعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، سنة 1407هـ/ سنة 1987م.

17 - فؤاد عبد المعطي الصياد، مؤرخ المغول الكبير (رشيد الدين فضل الله الهمزاني)، ط1، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1967هـ.

18 - فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، جروس برس سنة 1995م.

19 - قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، القاهرة سنة 1998م.

20 - قاسم عبده قاسم، علي السيد علي ، الأيوبيون والمماليك ، ط2، عين للدراسات والبحوث القاهرة سنة 1996م.

21 - قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث القاهرة سنة 2003م.

22 - محمد أحمد موسى هياجنة، محاضرات في تاريخ المغول والمماليك، مكتبة الحرمين، إربد.

23 - محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، ط2، دار المنار سنة 1417هـ/ سنة 1997م.

24 - محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، طبعة جديدة، بيروت، سنة 1415هـ سنة 1995م .

25 - محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945م، القسم الأول، البلاد المندرسة، مطبعة دار الكتب المصرية سنة 1953م - 1954م.

26 - محمد عبد الغني الأشقر: الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي، ط1، مكتبة مدبولي.

27 - محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: د. إحسان حقي، ط2، دار النفاش، بيروت 1403هـ.

28 - محمد مصطفى زيادة، بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك، كلية الآداب، الجامعة المصرية، مجلد رقم (4) عدد رقم (1) سنة 1936م.

29 - نور الدين خليل، سيف الدين قطز قاهر المغول (المماليك المفترى عليهم) ، بدون تاريخ .

30 - هويدا عبد العظيم رمضان : المجتمع المصري في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1994م.

المراجع والمواقع الأجنبية:

1- Bar hebraeus, the chronography, trans. From. Vriac. By Wallis budge, London, 1932.

2- Bertold spuler, History of the Mongols based on eastern and western accounts of the thirtenth and fortenth countries.

3- Howorth, History of the Mongols, port111, the Mongols of Persia, london, 1888.

4- J. Sauvaget, la poste aux chevaux Dans l'empire Des Mamlouks, paris (VI) 1941.

5- M.M. Ziada, the mameluk sultans to 1293.

6- Micheal prawdin, the Mongole empire, its and legacy, London 1967.

7- Syeda Satima sdequ M. a.ph.D, bay bars I of Egypt, oxford university pres, Pakistan, first Edition 1956.

8- Text Arabe publice et traduit en Francis par. E .blochet patrologia orientalis, t.x1v. fasc,3 Paris, 1911, 1930.

9- The wafidiya in the Mameluk kingdom, no II in studies on the Mameluks of Egypt 1250- 1517, London 1977.

10- William muir, the mameluk are slave dynasty of Egypt, Amsterdam, oriental press, 1968.

- www.islamonline.net.
- www.wikpedia.org.
- www.coptic history. org.
- www.imadislam. com.
- www.janazh.com.
- www.ibntaimiah.al-islame.com.
- www.saaid.net.
- www.al-zad.net.
- www.alzaidyah.hasanonline.com.